الأولاد
المشاغبون

بسم الله الرحمن الرحيم

رواية

الدكتور
طارق البكري

الأولاد المشاغبون

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

محفوظة
جميع الحقوق

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

يَوْمٌ مُخْتَلِفٌ

لا يُوْجَدُ شَيْءٌ في الدُّنْيَا يُزعِجُني أَكْثَرَ مِن الجُلُوسِ دُوْنَ فَائِدَةٍ ، وَدُوْنَ أن أَفْعَلَ شَيْئاً يُفِيدُني أو يُفيدُ الآخَرِيْنَ مِن حولِي ، فَلا بُدَّ لِي مِنْ عَمَلٍ ذِي شَأنٍ أَقُوْمُ بِهِ مِنْ حِيْنٍ لآخَرَ ، بَلْ في كُلِّ وَقْتٍ وَحينٍ ، وَلا بُدَّ أَن يَكُوْنَ فِعلاً نَافِعاً . وَكَثِيْراً مَا أَشغَلُ نَفسِي بالنَّافِعِ مِنَ الأمورِ ، وَغَالِباً مَا أَقضِي الأَوْقَاتَ الثَّمِينَةَ بِالقِراءَاتِ المُتَنَوِّعَةِ المفِيدَةِ إِن لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِن عَمَلٍ مُجْدٍ يُفْتَرَضُ أَن أَقُوْمَ بِهِ .

وَلَيْسَتِ القِرَاءَةُ عِنْدِي مُخَصَّصَةً لِأَوقَاتِ الفَرَاغِ ، فَهَذَا مَفْهومٌ خَاطِئٌ لِلْقِرَاءَةِ بِلا شَكٍّ ، لأَنَّ القِرَاءَةَ يَجِبُ أَنْ يُخصَّصَ لَهَا الْوَقْتُ الأَهَمُّ ، وَلا تَكُوْنَ لِلوَقْتِ الضَّائِعِ ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ لِهَذَا الْوَقْتِ « قِراءَاتٌ » لا بُدَّ مِنْهَا بَدَلاً مِنِ اسْتِهلاكِ الْوَقْتِ بمَا لا يَنْفَعُ . لا سيَّمَا أَنِّي اعْتَدْتُ عَلَى أَلا أَهْتَمَّ كَثِيراً بِالأَلْعَابِ الإلكترونيَّةِ ، وَالجُلوسِ مُدَداً طَوِيْلَةً أَمَامَ شَاشَةِ التلفزْيونِ أَوِ الشَّاشَاتِ المَوصولَةِ بِالإنْترنت ، مِنَ الأَجْهِزَةِ الذَّكِيَّةِ ، أَوْ رُبَّمَا « غَيْرِ الذَّكيَّةِ » . . بَلْ أُعْطيها مِنَ الْوَقْتِ مَا تَسْتَحِقُّ مِنْ حَاجَتي إِلَيْهَا ، لا أَكْثَرَ وَلا أَقلَّ ، وَلا أَدَعهَا تَسَيْطِرُ عَلَى نَفْسِي وَتَتَحَكَّمُ بِوَقْتي وَرَاحَتي وَسَعَادَتي .

وَعِنْدَمَا يَكُوْنُ نَهَارِي مَلِيئاً بالنَّشَاطِ وَالعَمَلِ إلى جَانِبِ القِرَاءَةِ ؛ يَكُوْنُ يَوْمِي جَميلاً . . لكنْ ـ وَكَمَا هُوَ مَعْلومٌ ـ فَإِنَّ الأَيَّامَ الجَمِيْلَة سَرِيْعاً مَا تَنْقَضِي . وَمِنْ طَبيعَتي أَنِّي أحِب الحَرَكَةَ الدَّائِمَةَ ، مِثْل كَثيرٍ مِنَ الأَطْفَالِ الَّذِينَ هُمْ في مِثْل سِنِّي . . وَالْهُدُوْءُ المُبَالَغُ فِيْهِ بِلا سَبَبٍ قَدْ يَكُوْنُ في حَالاتٍ كَثِيْرَةٍ شَدِيْدَ الإِزْعاجِ ، لا أَدْرِي كَيْفَ ؟! لَكِنَّهَا الْحَقِيْقَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا مَنْ يجَرِّبُهَا ، فَكلَّمَا ارْتَفعَتْ نِسْبَةُ الْهُدُوْءِ غَيْر المسْتَمَرِ ؛ ارْتَفَعَتْ في مُقَابِلِهِ نِسْبَةُ المَلَلِ .

فَبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ القُرَى البَعِيْدَةَ النَّائِيَةَ غَالِباً ما تَتَمتَّعُ بِهُدُوْءٍ سَاحِرٍ ، وَتَنعَمُ بِسَكِينَةٍ شِبْهِ دَائِمةٍ حَتَّى المَلَل في غَالبِ الأَحيَانِ ، فَإِنَّ الطُّيورَ عِنْدَمَا تَسْتَرْسِلُ في الغِنَاءِ تَشْعرُ مِنْ غِنائِهَا أَنَّها مَلَّتْ ، لَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تَسْتَمِرُّ في غِنَائِهَا وَطَرَبِهَا حَتَّى تَنْقَطِعَ أَنفَاسُهَا .

قَدْ أَكُوْنُ مُخْطِئاً . . لَكِنَّهُ الْوَاقِعُ ؛ فَكَثِيرٌ مِن أَهْلِ القُرَى البَعِيْدَةِ عَنِ المدنِ الكَبِيْرةِ يَشْتَكُوْن مِنْ أَنَّ مَا يَنَامونَ عَلَيْهِ يَسْتَيقِظونَ عَلَيْهِ ، أَمَّا مَنْ يَأْتِي مِنَ المدنِ إِمَّا لِلزِّيَارَةِ أَوْ لِلاصْطِيَافِ أَوْ لِلمكوْثِ بَعْضَ الْوَقْتِ ؛ فَلَنْ يَشْعرَ كَمَا يَشْعرُ المقيْمُ في تِلْكَ القُرَى البَعِيْدَةِ بِشَكْلٍ دَائِمٍ ، حَيْثُ تَكُوْنُ المسْتَجِدَّاتُ قَلِيْلَةً ، وَعَدَدُ السُّكَّانِ مَحْدوداً ، وَغَالِباً مَا يَكُوْنُ السُّكَّانُ مِنْ كِبَارِ الْقَرْيَةِ وَصِغَارِهَا .

أَمَّا الشَّبَابُ فَغَالِباً مَا يَخْرُجُوْنَ مِنْها لِلْعَمَلِ مُعْظَم النَّهَارِ ، ورُبَّمَا

يَقْضونَ أَيَّاماً طَوِيلَةً خَارجَهَا ، وَقَدْ لا يَأْتُوْنَ إِلَيْهَا إلا في نِهَايَةِ الأُسْبُوْعِ ، بَلْ إِنَّ كَثِيراً مِن أَهْلِ القُرَى قَدْ يسَافِرونَ شهوراً عَدِيْدَةً إلى أَمْكِنَةٍ بَعِيْدَةٍ سَعْياً وَرَاءَ الرِّزْقِ ، وَقَدْ يَمْضِي بَعْضُهم مَا بَيْنَ عَامٍ وَعَامَيْنِ وربَّمَا ثَلاثَةَ أَعْوَامٍ وَأَكْثَرَ بَعِيْداً عَنْ قُرَاهُمْ وبُلْدَانِهِمْ . . ثُمَّ يَأْتُوْنَ لأَيَّامٍ وَأَسَابِيْعَ تَمُرُّ سَرِيْعاً ثُمَّ يَرْحَلُوْنَ .

هَذِهِ حَالُنَا الَّتِي نَشَأْنَا عَلَيْها . . نَعيشُ بِهُدُوْءٍ تَامٍّ وَلا يَكْسرُ هَذَا الْهُدُوْءَ في كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ سِوَى صِيَاحِ دِيْكٍ في الصَّبَاحِ أَو صَهيلِ حِصَانٍ عائِدٍ منَ العَمَلِ في الحقوْلِ .

النَّاسُ فِي قَرْيَتِنَا تَعِيْشُ في سَلامٍ ، ومُنْذُ أَنْ تَفَتَّحَتْ عَيْنَايَ عَلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَأَنَا أَرَاهَا تَغْفو حَتَّى وَهيَ صَاحيَة . .

تَنَامُ مسْتَيقظَةً وَتَسْتَيقظُ نَائمَةً . . تَمْضِي الحَيَاةُ في أَزقَّتهَا وَشَوارعهَا وَبَسَاتِيْنِهَا وَتِلالِها وَهِضَابِهَا وَسُهولِهَا هَانئَةً مُطْمَئِنَّة الْبَالِ ، دُوْنَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوَهَا شَيْءٌ .

إلى أَنْ جَاءَ يَومٌ مُخْتَلِفٌ تَمَاماً ؛ لا يَعْرِفُ مِثْلهُ مِنَّا أَحَدٌ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في حُسْبَانِ أَحَدٍ . .

كَانَ صَباحاً صَاخِباً لَمْ تَشْهَدْ قَرْيَتُنَا مَثيلاً لَهُ في يَوْمٍ منْ سَابقِ الأَيَّامِ .

كَانَ يَوْماً في بِدَايَتِهِ مِثْل سَائِرِ الأَيَّامِ ؛ هدوءٌ « مزعج » لِلْغَايَةِ . .

وَخَاصَّةً بِالنِّسْبَةِ لِي لِكَسْرٍ أَصَابَ قَدَمِي ، وَٱلْزَمَنِي المُكُوْثَ في البَيْتِ لأَيَّامٍ ، وَكُنْتُ أَتَنَقَّلُ مَا بَيْنَ كتَابٍ وَكتَابٍ . . حَتَّى شَعَرْتُ كَأَنِّي أَصبَحْتُ جُزءاً مِنَ المَكْتَبَةِ . . وَرَغْمَ مَا أَشْعُرُ بِهِ مِنْ جُوْعِي الدَّائِمِ لِلْقِرَاءَةِ فَإِنِي كُنْتُ أَحْتَاجُ لِلْخروْجِ وَالتَّفَسُّحِ قَلِيْلاً بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ السِّجْنِ الاضْطِرارِي بَيْنَ أَرْبَعَةِ حِيْطان .

ودونَ مُقَدِّمَاتٍ ؛ ضَجيجٌ عَالٍ جداً . . صيَاحٌ وَصرَاخٌ وَزَعِيْقٌ . . أَصْوَاتٌ مرْتَفِعَةٌ مَلأتِ الأَمْكِنَةَ شَرْقاً وَغَرْباً . . شمَالاً وَجَنوباً . . عَلَى غَيْرِ طَبيعَةِ قَرْيَتِنَا الهَادِئَةِ الهَانِئَةِ . . أَصْوَاتٌ عَاليَةٌ تَتردَّدُ بِلا انْقِطَاعٍ . . مَعَ حَرَكَةٍ مريبَةٍ في الجوارِ . . صبْيانٌ يَتَنطَّطونَ . . يَتَقَافَزوْنَ . . يَرْكُضُوْنَ في الأَزقَّةِ الضَيِّقَةِ . . مُتَجاورِينَ حِيْناً . . وَمتبَاعِدِيْنَ أَحْيَاناً أُخْرَى . خَلْفَ بعْضِهِم مَرَّةً ، مِثْل سِلْسِلَةٍ بَشَرِيَّةٍ ، أَوْ كَجنودٍ في صَفٍّ طَوِيْلٍ منْضَبطِ الخطواتِ . . وَمتَقَارِبِيْنَ وَمتَلاحِمينَ مَرَّة أُخْرَى . .

متَرَاصِّينَ تَارَةً . . في سِلْسِلَةٍ متَبَاعِدَةٌ حَلقَاتُهَا أَوْ متَّصلَةٌ تَارَةً أُخْرَى . . لَكِنَّهَا عَلَى الدَّوَامِ متعرِّجةٌ متفرقةٌ بلا انْتظامٍ أو ترْتيْبٍ . . يُسابِقُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً . .

يهْرَعوْن كَأَنَّهُمْ في سِبَاقِ الجائِزةِ الكُبْرى . . يقْفزونَ كَأَنَّهُمْ صُيودٌ تخْشَى فكَّ أَسَدٍ مُفْتَرِسٍ عَجوزٍ ، فاغِرِ الفاهِ ، فرَّ منْ محْبسِ سَجَّانٍ

شَحيحٍ بَخيلٍ ، لا يُطْعِمُه إلا القَلِيْلَ . . وإذَا أطْعَمَه فَطعَامُه بسيطٌ خفيفٌ لا يُسْمنُ ولا يُغْني مِنْ جوْعٍ .

أفْكارٌ كَثِيْرَةٌ تَرَاءَتْ أَمَامِي في لَحَظاتٍ . . ثُمَّ وبِشَكْلٍ فُجائيٍّ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ ؛ ظَهَرَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَهُمْ يَتَسارَعوْن خَلْفَ بعْضِهِمْ كَسَيلِ جارِفٍ رَجُلٌ يَعْرِفُه الجَمِيْعُ ، كَانَ ينْطَلقُ وَرَاءَهُمْ مِثْل سَهْمٍ أَحْمَرَ . . كَانَ الرَّجُلُ حَلاق قَرْيَتِنَا الغَرِيْبَ الأطْوارِ .

ظَهَرَ فَجْأَةً دُوْنَ تَوَقُّعٍ ، مهَرْولاً خَلْفَهمْ كَأَسَدٍ مُفْتَرِسٍ غاضِبٍ ، قَرَّرَ مُسْبَقاً أَنْ يَنْشبَ أَظْفارَهُ ، وَيَفْتكَ بالفَرائِسِ الَّتِي يُلاحِقُها مَهْمَا كَانَتِ الصِّعابُ والتَّحدِّياتُ . . بَرَزَ مِنْ مخْرَجِ الزُّقاقِ الضَّيِّقِ المُلاصِقِ للسَّاحَةِ الَّتِي تَتَوَسَّطُ الْقَرْيَةَ . .

الزُّقاقُ يَبْدُو كَأَنَّه نَهرٌ منَ الأَحْجارِ الكَرِيْمَةِ المرْصوصَةِ بِعِنَايَةٍ وَدِقَّةٍ وَإِحْسَاسِ فنَّانٍ . . يَمْضِي طَوِيْلاً بِرَشَاقَةٍ بَيْنَ بيوْتٍ حَجَرِيَّةٍ قَدِيْمَةٍ أَنِيْقَةٍ . .

كَانَ يَرْكُضُ مُسْرِعاً . . مُسَابِقاً ومُطَارِداً . . مُتَقَدِّماً وَمُتَرَاجِعاً . . كَأَنَّه قَوْلُ الشَّاعِرِ الجاهِلِيِّ امْرئِ القَيْسِ في وَصْفِ فَرَسِه الجَموْحِ ، (أَو رُبَّمَا نَفْسِهِ وَهُوَ يَقوْدُ فَرَسَه) :

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقْبِــلٍ مُــدْبِــرٍ مَعــاً

كَجُلْـمُـوْدِ صَخْـرٍ حَطَّـهُ السَّـيْـلُ مِـنْ عَـلِ

تَراهُ حِيناً رافِعاً سَبَّابَةَ يَدِه اليُمْنَى ، مُهدِّداً ومُزمْجِراً ، وفي يَدِهِ الأُخْرَى عَصاً طَوِيْلَةٌ ، مِنْ خَشَبٍ مَصْقولٍ لَمَّاعٍ . . عَلَى جانِبِها نَقْشٌ لأنْواعٍ مِنَ الطُّيُوْرِ .

وَبِقَبْضَتِهِ اليُسْرى يَتَوَكَّأُ عَلَى شَكْلِ طَيْرٍ خَشَبيٍّ مَشْغولٍ بِدِقَّةِ مُبْدِعٍ بارِعٍ ، يَتَوَسَّدُ رَأْسَ العَصا بِحَنانٍ بالِغٍ ، يَسْتَعِيْنُ بِهَا بَيْنَ القَفْزَةِ وَالقَفْزَةِ ، دُوْنَ أَنْ يُلَوحَ كَثِيراً بِالعَصا الطَّوِيْلَةِ لِيُخِيْفَ الصِّبْيَانَ الصِّغارَ الَّذِينَ هُمْ كَعَادَتِهِمْ يُحِبُّوْنَ اللَّهْوَ وَالمُشَاكَسَةَ وَالمُعَاكَسَةَ والمخالَفَةَ .

والجَمِيْعُ يَعْرِفُ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الصِّبْيَانِ لا يُحِبُّوْنَ أَنْ يُمْلِيَ عَلَيْهِم أَحَدٌ ما الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَفْعَلُوْهُ . . مِثْل صَدِيْقِي ماضي المَعْرُوفِ بِأَنَّهُ مُشَاكِسٌ مُعَاكِسٌ . إِذَا قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ : « تَعالَ لِتَدْرسَ » ، ذَهَبَ وَجَلَسَ أَمَامَ التلفزيون . . وإِذَا قَالَ لَهُ أَبوهُ : « اخْفِضْ صَوْتَ التلفزيون » ، رَفَعَ الصَّوتَ عالِياً . . وإِذَا قَالَتْ لَهُ المُدَرِّسَةُ : « أُرِيدُ وَظِيفَتَكَ غَداً » ، قَدَّمَها في الأُسْبُوْعِ التَّالي . وإِذَا طَلَبَ مِنْهُ أَيُّ إِنْسانٍ طَلَباً ما ، كَانَ يُعاكِسُهُ وَيُشَاكِسُه . .

فهوَ لا يُحِبُّ أَنْ يَقُوْلَ لَهُ أَحَدٌ افْعَلْ أَو لا تفْعلْ . . ويُصِرُّ عَلَى مَوَاقِفِهِ المُعَاكِسةِ مَهْمَا كَانَتِ العقوباتُ أو المُغْرَياتُ .

في يَوْمٍ . . وفِيْمَا كَانَ ماضي عائداً منَ المَدْرسَةِ . . رَأَى لَوْحَةً تَقوْلُ : (رَجَاءً . . لا تَمْشِ عَلَى هَذَا الرَّصيْفِ) . . نَظَرَ ماضي إلى

اللَّوحَةِ بِغَضَبٍ ، فَهُوَ لا يُحِبُّ الأَوَامرَ . . سَارَ وَسطَ الرَّصيْفِ مُتَحَدِّياً . . صاحَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَعْلَى البِناءِ المُجاورِ : « ابْتَعِدْ يا صبيُّ . . ابتَعِدْ عنِ الرَّصيفِ » ، لَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى السَّيْرِ ، وإِذْ بِكَمِّيَّةٍ كَبيْرةٍ مِنَ الأَصْباغِ تَنْهَمرُ عَلَيْهِ ، ويُصْبحُ شَكْلُهُ مُضْحِكاً . . فَقَدْ كَانَ هُنَالِكَ رجَالٌ يَصْبغون المبْنَى بألْوانٍ مُخْتَلِفةٍ . . وعِنْدَمَا شَاهَده المارُّوْن راحوا يَضْحَكُوْنَ ويَضْحَكُوْنَ .

والْعَمُّ أَبُو فِرَاسٍ يَتَعَرَّضُ في بَعْضِ الأحْيانِ لمُشَاكساتِ الأَطْفَالِ . . لَكِنَّهُ رغْمَ ذَلِكَ يَبْقَى مُحافِظاً عَلَى هُدوْئِهِ ، وإِنْ كَانَ يَبْدُو غَرِيْبَ الطَّبْعِ في كَثِيْرٍ من الأَوْقَاتِ ، فلَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ عنْ طَوْرِهِ . . وَيَظَلُّ غَضَبُهُ ضِمْنَ حُدوْدِ المَعْقولِ ، فَلا يُثِيْرُ مُشْكِلَةً ، ولا يَفْتَعِلُ قَضِيَّةً .

وهَذِهِ المرَّةُ لَمْ تَكُنْ مِثْل كُلِّ مَرَّةٍ ، فَإِنَّ هَؤُلاَءِ الصِّبْيَانَ كَمَا يَبْدُو تَجاوَزوا كلَّ حُدوْدِ المُشَاكَسَةِ والمُعَاكَسَةِ المَعْهودَةِ مَعَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ الحَلاَّقِ ، وأَكْثَر بِكَثيرٍ مِنْ أيِّ مرَّةٍ سابقَةٍ .

وَكَمَا يَعْلَمُ الجَمِيْعُ فَإِنَّ أَبا فِرَاسٍ رجلٌ طيِّبُ القَلْبِ رَصينُ الطِّباعِ ، يَبْدُو هادِئاً وَديْعاً أَمَامَ النَّاظرِيْنَ لِلوهْلَةِ الأُوْلى ، لَكِنَّهُ لا يَلْبثُ أَنْ يَنقلبَ رَأْساً عَلَى عَقبٍ دُوْنَ مُقَدِّمَاتٍ إِذَا غاظَهُ أَحَدٌ أَوْ أَغْضَبَه ، وَيَنْطَلقُ صياحُهُ وزَعيْقُهُ بِطَرِيْقَةٍ عَصَبيَّةٍ غَرِيْبةٍ تُدْهشُ كُلَّ مَنْ

حَوْلَهُ ، لِذا كَانَ النَّاسُ في قَرْيَتِنَا يَتَجَنَّبُون إِثارَةَ غَضَبِهِ ، كَمَا كَانَ هُوَ أَيْضاً يَتَجَنَّبُ الوُقوْعَ في مِثْلِ هَذِهِ العَصَبيَّةِ الفَرِيْدَة . . ولِهَذَا كَانَ من النَّادِرِ جدّاً أَنْ يَسْمَعَ النَّاسُ صَوْتَهُ أَوْ يَروهُ غَاضِباً .

* * *

مَشَاهِدُ تُثِيْرُ الضَّحِكَ

المُتَأَمِّلُ لهَذِهِ المَشَاهِدِ الغَرِيْبَةِ وَغَيْرِ المُتَوقَّعةِ لا بُدَّ وأَنْ يُصابَ بِنَوْباتٍ مُتفاوتَةٍ مِنَ الضَّحِكِ . .

فَقَدْ بَدَأَ عُنقُه طَوِيْلاً مَدِيْداً أَكْثَرَ منَ الطَّبيعيِّ فِيْمَا هُوَ يَرْكُضُ وَيَتَلوَّى بِعَرْجَتِهِ خَلْفَهمْ ، وَقَدْ ظَهَرَ جَسَدُه قَصِيْراً منْحَنياً قَلِيْلاً إلى الأمامِ ، كَرَجلٍ عجوْزٍ ذيْ ظهْرٍ مقوسٍ ، رغْمَ أنَّه مَا زَالَ في فُتوَّتِه ، ولمْ يُغادِرْ بَعِيْداً سنَّ الشَّبابِ ، وأَمامَه فتْرةٌ مديْدةٌ من الكُهولةِ قَبْلَ الشَّيْخوخَةِ .

كانَ شَنَبُ العمِّ أَبي فِرَاسٍ مُروَّساً كَرَأْسِ حَرْبَةٍ ، حَادٍّ قَلِقٍ ، بَدَأَ مُسْتَنْفِراً غَاضِباً مِثْلَ صاحِبِهِ ، يَتَخَلَّلُهُ شَرِيْطٌ محْترقٌ بفحْمِ شعْرِه الدَّاكنِ القَديْمِ . .

عَظْمُ الخَدَّيْنِ ناتِئٌ يَمْتزِجُ مَعَ قَلِيْلِ لحْمٍ بوجْهٍ بارزِ الشَّفَتيْنِ . . لَحْمُ الكَتِفيْنِ قَلِيْلٌ . . نَحيْلٌ مِنَ الأَعْلَى ضعيْفٌ مِنَ الأَسْفَلِ . .

فقرَاتُ الرَّقَبَةِ بارِزَةٌ ، وَعِظامُ الكَتِفَيْن نُتوءَاتٌ مِن خَلْفِ قَميْصٍ مَشْدودٍ بِخِفَّةٍ صَيْفاً وَشِتاءً ، وَالقَفَصُ الصَّدْريُّ يَظْهرُ كَخطوطٍ رَفيْعةٍ متعرِّجَةٍ مُسْتَديْرةٍ إلى الخَلْفِ . .

وَبَعْدَ الانْزِلاقِ مِنْ ناحِيَةِ الصَّدْرِ يَتَّسِعُ امْتدادُ الجِسْمِ عَرْضاً ، ثُمَّ يَمْتدُّ البَطْنُ بِكِرْشٍ بارِزٍ مُتَدَلٍّ بِلُيُوْنَةٍ ، ثُمَّ يَعوْدُ لِنَحافَةٍ لا تَتَّسِقُ مَعَ اتِّسَاع وَسَطِ جَسَدِهِ . .

يَبْدو مُتَناقِضاً مَعَ السَّاعَةِ الرَّمْلِيَّةِ ذاتِ العُنُقِ الأَوْسَطِ الدَّقيْقِ وَالانْتِفاخِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ ، فَهُوَ يَظْهَرُ كَالبَاذِنْجَانَةِ الرَّفيْعَةِ مِنَ الأَعْلَى المتَضَخِّمَةِ وَسَطاً ، ثُمَّ تَسْتَديرُ نَحافَةً حَتَّى نُقْطَةِ النِّهَايَةِ ، حَيْثُ تَعوْدُ النَّحافَةُ بِشَكْلٍ غيْرِ انْسِيابيٍّ بِفَخْذَينِ نَحيْلَيْنِ وَسَاقَيْنِ دَقِيْقَتَيْنِ ، فَتَبْدُو مِشْيَتُهُ قلِقةً مُتَذَبْذِبَةً . . فَكَيْفَ عِنْدَمَا يُهَرْوِلُ وَيَرْكُضُ فَتَرْتَفعُ العُنُقُ وَتَتَحَرَّكُ جِيْئةً وَذهاباً ، تَارَةً إلى الأَمامِ وَتَارَةً إلى الخَلْفِ . . مِثْل عُنُقِ دَجاجَةٍ بِرَكْضَتِها الطَّرِيْفَةِ عِنْدَمَا تَجدُّ بِالسَّيْرِ ؟!

وَتَرَى كِرْشَهُ المُنْدَلِقَ بِسَخاءٍ إلى الأَمامِ يَتَلاعَبُ بِهِ الهَواءُ مِثْل شِراعِ مَرْكَبٍ صَغِيْرٍ في بَحرٍ هائِجٍ .

أَمَّا خُلُقُهُ الضَّيِّقُ كَعُنُقِ زُجاجَةٍ شَفَّافَةٍ بَالِغَةِ الضِّيقِ ، وَكَذَلِكَ عَصَبِيَّتُهُ الَّتِي بَدَتْ زائِدَةً عَن حَدِّها المُعْتَادِ ، وَالَّتي قَدْ تَكُوْنُ زِيادَتُها عَادِيَّةً لدَى بَعْضِ النَّاسِ فِيْمَا يَرْفُضُها البَعْضُ الآخَرُ . .

كَانَ في دُكَّانِهِ مِثْلَ تِمْثالٍ جامِدٍ مُتحجِّرٍ ، لا يُغادِرُ جدرَانَهُ الأَرْبَعَةَ إلا للضَّرورَةِ القُصْوَى ، وَمِنْ شِدَّةِ عَصبيَّتِهِ يُعارِكُ حَتَّى ذُباب وَجْهِهِ كَمَا يَقُوْلُوْنَ .

مَعَ أَنَّ الحَلاقِيْنَ في العادَة يَتَحلَّونَ بِصَبرٍ فائِقٍ ، مُسَتِفزٌّ أَحْيَاناً ، وَقَدْ يَمْتازونَ بِرُوحٍ فكاهيةٍ مرحةٍ ضاحكةٍ وإن كانت مفتعلةً ، كَمَا يحرصون عَلَى التَّمتُّعِ بخيالٍ خصبٍ متدفقٍ . . فهَذِهِ السِّماتُ معروفةٌ عِنْدَ كثيرٍ من الَّذِينَ يمتهنون مهنة الحِلاقةِ ، وهي مهنةٌ جَمِيْلَة لطيفةٌ ، تحتاج إلى مهارةٍ خاصةٍ ودقةٍ في العَمَل ، وإِحْسَاس فنانٍ لِكَيْ يَكُوْنَ الحَلاَّقُ متميزاً في عَمَله .

ومهنة الحِلاقَةِ مهنةٌ قديمةٌ جداً ، وَكَانَ الحَلاقُ في الماضي لا يَكْتَفِي بِحِلاقَةِ شَعْرِ الرَّأْسِ وَالذَّقْنِ ، بَلْ يُعْتَبَرُ طَبيباً شَعْبِيّاً ، يُعالِجُ بَعْضَ الأَمْراضِ الَّتِي كَانَتْ مُنْتَشِرةً في الأَيَّامِ الغابِرَةِ . . وَكَانَ يَقُوْمُ بِخَلْعِ الأَسْنانِ وَالأَضْراسِ ويَجْرِي عَمَلِيَّاتٍ جِراحِيَّةً بَسِيطَةً .

ومِنْ طَرَائِفِ ما يُقَالُ : إنَّ الحِلاقَةَ بَدَأَتْ أَوَّلاً بِسَبَبِ الحُرُوبِ ، فَكَانَ يَتِمُّ حَلاقَةُ شَعْرِ الجُنودِ ولِحاهُم قَبْلَ بَدْءِ القِتالِ ، كَيلا يُمسكَ الأعداءُ بالشَّعْرِ أَوْ باللِّحى خِلاَلَ المَعْرَكَةِ ، وَهُنَاكَ مِنَ الحَلاقِيْنَ مَنْ يَسرُدُ قِصَصاً صَحيحَةً مَعْلومَةً ، يَرْوونَها بِجَدارَةٍ ، يُقَدِّمُ البَعْضُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهمْ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُم عُلماءُ في التَّارِيْخِ والجُغرافيا والحِسابِ والتُّراثِ والعُلومِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالنَّفْسيَّةِ والطِّبيَّةِ ، وَحَتَّى السِّياسيَّة والعَسْكَرِيَّة . . أَوْ يَظُنُّونَ أَنفُسَهُم شُعَراءَ وَأُدَباءَ وَكُتَّاباً وَمُحَلِّلِينَ اقْتِصادِيِّينَ وَاجْتِمَاعِيِّينَ . .

وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ هُوَ سَطْحِيٌّ مُدَّعٍ ، أَوْ جاهَل مُغْرِقٌ في الجَهْلِ ، وفي الحالَيْنِ هُمْ يَجْمَعُونَ أَخْبَارَهُمْ وَقِصَصَهُمْ وَرِوَايَاتِهِمْ بِالسَّماعِ مِنْ زَبَائِنَ قَدْ لا يَمْلِكُونَ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيْلاً ، فَيَخْلطُونَ مَا بَينَ الجيِّدِ النَّافِعِ وَالرَّدِيءِ الضَّارِّ ، وَمَا بَينَ الصَّحيحِ وَالعَليلِ ، وَمَا بَينَ الجدِّ بِالهَزْلِ . وَرُبَّمَا وَصَلَ الأَمْرُ بِأَحَدِهِمْ أَنْ ظَنَّ نَفْسَهُ مَوسُوعَةً مُتَنَقِّلَةً .

كَمَا أَنَّ مِنْ بَينِهِمْ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِخصلَةٍ فَرِيْدَة مُتَمَيِّزَةٍ ، قَدْ يَرَاها بَعْضُ الزَّبائِنِ سَيِّئَةً ، فِيْمَا يَرَاها البَعْضُ الآخَرُ فُرصةً لِلتَّسْلِيَةِ وَتَمْضِيَةِ الْوَقْتِ تَحتَ مِقَصِّ الحَلاقِ أَوْ « لِسانِهِ » ، وَهِيَ حُبُّ الكَلامِ الزَّائِدِ وَالحَكي الكَثيرِ لِغَايَةِ الثَّرْثَرَةِ .

وَحَتَّى لو كانَتْ هَذراً بِلا معنى ، المُهِمُّ عِنْدَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا مَعَ الزَّبُوْن « حَتَّى آخِرِ شَعْرَةٍ » . . فَضْلاً عَنِ القِيامِ بِما يُحَبِّبُ الأَطْفَالَ فِيْهِمْ وإِنْ كَانَ تَهْريجاً ، لِكَيْ يَكْسبوا وُدَّهُمْ ، وَبِالتَّالِي يَكْسبونَ عَدَداً أكبَرَ منَ الزَّبَائِنِ .

فَالتَّسْوِيْقُ لِلْبِضَاعَةِ فَنٌّ في عِلْمِ « التِّجارَةِ » وَ« المُنَافَسَةِ » الَّتِي قَدْ تَكُوْنُ نَظيفَةً وَشَريفَةً ، أَو غَيرَ نَظيفَةٍ وَشَريفَةٍ ، فَيصبح التَّسْوِيْقُ للتَّزييف أَهمَّ أَحْيَاناً كَثِيْرَةً منَ البضَاعَة نَفسِهَا ، وَرُبَّمَا كَانَ التَّسْوِيْقُ مجمِّلاً لِلْقُبْحِ ، فَيَجْعَلُ مِنَ البِضَاعَةِ السَّيِّئَةِ بِضَاعَةً حَسَنَةً ، وَمن

البِضَاعَةِ الرَّخيصَةِ بِضَاعَةً غَالِيَةً ، فَيَقْلِبُ الْحَقِيقَةَ حَتَّى يَجْعَلَ الدَّمِيمَ في أَعْيِنِ الزَّبائن حُلْواً مُزَرْكَشاً ، بَلْ قَدْ يَجْعَلُ أَخَسَّ المُمْتَلَكَاتِ كـ « حُمرِ النَّعَمِ » ، مِثْلَ العِبَارَةِ الَّتِي وَرَدَتْ في سِياقِ حَدِيثٍ نَبَويٍّ شَرِيفٍ ، وَيُقْصَدُ بِهَا الإِبلُ الحُمرُ ، وَهِيَ أَنْفَسُ وَأَغْلَى أَمْوَالِ العَرَبِ قَدِيماً .

وَقَدْ قِيْلَ في الأَمْثَالِ : « قَنِعَ مِنْ زَمَانِهِ بِالنَّصِيبِ الأَخَسُّ » ، أَي الأَقَلُّ وَالأَدْنَى ، وَهَذَا مِمَّا لا يَليقُ بِصَاحِبِ الفِكرِ وَالمَعْرِفَةِ وَذِي الشَّأنِ .

وَمِنْ طَرَائِفِ الحَلاقِيْنَ قَدِيماً ؛ أَنَّ جحَا دَخَلَ مَحلاً لِلحِلاقَةِ لِيَحلِقَ ذَقنَهُ ، وَكَانَ الحَلاقُ غَيرَ بَارِعٍ . . كُلَّمَا جَرَحَ جحَا جُرْحاً وَضَعَ الحَلاقُ عَلَيْهِ قُطناً . . وَلَمَّا أَتَمَّ نِصْفَ ذَقنِهِ ، وَقَفَ جحَا وَقَالَ لَه : « كَفَى . . خُذْ أُجْرَتَكَ » . فَسَأَلَهُ الحَلاقُ : « لِمَاذَا لا تَصْبرُ حَتَّى أَنتَهِيَ ؟ » . فَأَجَابَهُ جحَا : « لأَنَّكَ زَرَعْتَ نِصْفَ ذَقْني قُطْناً ، وَمُرادي أَنْ أَزْرَعَ النِّصْفَ الآخَرَ كتَّاناً » .

أَمَّا العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ فَحَالُهُ مُخْتَلِفٌ ، بَلْ عَلَى النَّقِيضِ مِن ذَلِكَ تَمَاماً ، فَهُوَ مُحْتَرِفٌ أَشَدَّ الاحْتِرَافِ . . وَالجَمِيْعُ يَشْهَد لَهُ بِذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ كَثِيراً . . وَلا يُحِبُّ تَسْلِيَةَ الزَّبُوْنِ لا بِالمُزَاحِ ولا بِالكَلامِ ، حَتَّى الكَلام المَحْدُود البَسِيْط لَهُ أَلْفُ حِسَابٍ عِنْدَهُ .

وَيَضِيقُ صَدْرُهُ مِنَ الجَمِيعِ ، وَخَاصَّةً مِنَ الأَطْفَالِ . . لِذَلِكَ رَفَعَ لَوْحَةً كَبِيرَةً عَلَى بَابِ مَحَلِّهِ يَقُولُ فِيهَا : (مَمْنوعٌ دُخُولُ الأَطْفَالِ) .

وفي الجِهَةِ المُقَابِلَةِ عَلَّقَ لَوْحَةً أَكْبَرَ مِنَ الأُولى كَتَبَ عَلَيْها بِخَطٍّ مُتَعَرِّجٍ ، لَكِنَّهُ جَمِيلٌ وَبَسِيطٌ : (عُذْراً . . لا أَحْلقُ شَعْرَ الأَطْفَالِ) . وَكَما يَبْدُو فَإِنَّهُ وَضَعَ اللَّوْحَةَ الثَّانِيَةَ لِيُؤَكِّدَ الأُولى ، احْتِرازاً مِنِ احتِمالِ أن لا يرى الأولى بَعْضُ الزَّبائِنِ ، أَوْ رُبَّمَا قَدْ « يُطنِّشُها » البَعْضُ الآخَر ، أوْ قَدْ يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ المَقْصودَ أَنَّهُ يَمنَعُ دُخُولَ الأَطْفَالِ الَّذِينَ لا عَمَلَ لَهُمْ .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَدْرِي مَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يَجْعَلُ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ يَكرَهُ الأَطْفَالَ ، وَهَلْ هُوَ فِعْلاً يَكْرَهُ الأَطْفَالَ أَمْ يَكْرَهُ فَقَط الحِلاقَةَ لَهمْ !!

كَانَ الأَمرُ أَكْثَرَ مِنْ لُغزٍ يُحيِّرُ أَهْلَ القَرْيَةِ كُلِّهَا ، فَلا هُوَ يُفْصِحُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ ، وَلا هُوَ يُجيبُ سائلاً إِذَا سَأَلَهُ ، فَاعْتَادَ النَّاسُ عَلَى حَالِهِ كَمَا هِيَ ، وَرَضَخَ الجَمِيعُ لِرَغْبَتِهِ وَأَذْعَنوا .

كَانَ مِنَ النَّادِرِ أَنْ يَسْمَعَ أَحَدٌ صَوتَهُ مِنْ خارِجِ الدُّكَّانِ . . لا يَتَكَلَّمُ إِلا قَلِيلاً وَعِنْدَ الحاجَةِ فَقَط ، وَكَأَنَّهُ يعدُّ كَلامَهُ وَيَحْسبُ كَلِماتِهِ كَلِمَةً كَلِمَةً . . يَكْتَفِي بِرَدِّ التَّحِيَّةِ عَلَى مَنْ يُلْقِيها . . أَوْ قَدْ يُشِيرُ بِيدِهِ مُرحِّباً وَرَادّاً لِلسَّلامِ .

لَكِنَّهُ اليَوْمَ بَدَا مُخْتَلِفاً . . سَمِعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ حَوْلِ الدُّكَّانِ

والزقاقِ وَالسَّاحَةِ صَوتَه يَتَرَدَّدُ في الأَنْحاءِ . . لَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَصِلُ إلى بَابِ دُكَّانِهِ مِنْ قَبْلُ بِالرَّغْمِ مِنْ عَصَبِيَّتِهِ ، فَكَانَ أَمْراً جَديداً مُخْتَلِفاً ، وَحَدَثاً سَيُصبِحُ فِيْمَا بَعْدُ حِكَايَةً يَروِيْها الكِبارُ والصِّغارُ .

صَاحَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ هَذِهِ المَرَّةَ بِصَوْتٍ أَعْلَى مِنْ أَيِّ مَرَّةٍ سابِقَةٍ ، حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ يَوْماً أَنَّهُ صَاحَ أَو رَفَعَ صَوتَه ، فَسَمعَه كلُّ مَنْ في الحارَةِ مِنْ خَلْفِ نَوافِذِ بُيوتِهِم . . هَبَّ كثيرٌ مِنْهُمْ لِيُتابعوا هَذَا المشْهَدَ الشَّيِّقَ الطَّريفَ . . وخَاصَّةً أَنَّهُ مِنَ النَّادِرِ أَنْ يمشيَ في شَوارِعِ الحارَةِ وَأَزِقَّتِها وَحَارَاتِها . . فَدُكَّانُهُ لَهُ بابٌ خلْفيٌّ يَقُودُهُ مُبَاشَرَةً إلى بَيْتِهِ ، يَعْنِي أَنَّهُ لا يَحتاجُ لِكَيْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّكَّانِ حَتَّى يَذهَبَ إلى بَيْتِهِ . . فَبيتُهُ هُوَ دُكَّانُهُ . . ودُكَّانُهُ هُوَ بَيتُهُ .

وَكَانَ يَشتَري مَا يَحتَاجُ من حَاجِيَّاتٍ بَسيطَةٍ مِن حانُوتٍ مُجاورٍ ، وَلا يَذهَبُ بَعِيْداً وَلا يَمشي كَثِيراً . واليَوْم غَيَّرَ عَادَاتِهِ وَقَوانينَهُ .

كَانَ يَقفِزُ خَلفَ صِغَارِ الحارَةِ ماطّاً شَفَتَيهِ حَتَّى تَكاد شَفَتُهُ السُّفْلَى تَقَعُ عَلَى الأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ المَطِّ .

النَّاسُ يُطلُّون من الشُّرُفَاتِ والنَّوَافِذِ ، يَضْحَكُوْنَ وَهُمْ يُخْفُوْنَ أَسْنانَهمْ حَتَّى لا يَرَاها الجيْرانُ عَلَى الشُّرُفَاتِ والنَّوَافِذِ المُقَابِلَةِ ، وَقَدْ يُنادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِمُشَاهَدَةِ هَذَا المشْهدِ العَجيبِ . .

لكنَّ أَحداً مِنْهُمْ لَمْ يُنادِ وَلَدَهُ في حَلبَةِ المُطَارَدَة العَنِيْفَةِ لِكَيْ يَعودَ إلى بَيْتِهِ وَيَترك العَمَّ أَبا فِرَاسٍ وَحَالَهُ .

كَأَنَّهُم جَمِيْعاً أَرَادُوا ألا يَنْتَهِيَ هَذَا المشْهَدَ المُضحِكَ ، وَهُمْ مُتَأَكِّدُونَ أَنَّهُ سَيَنْتَهِي عَلَى خَيرٍ ؛ لأنَّهمْ يَعْلَمُونَ أَنَّه لَيْسَ مِنْ طَبْعِ أَبي فِرَاسٍ أنْ يُؤذِيَ أَحَداً . . حَتَّى الفَأْرَة لَو دَخَلَتْ دُكَّانَهُ يَقُوْمُ بِطَرْدِها دُوْنَ أَنْ يَقْتُلَها ، فَهُوَ كَمَا يَقُوْلُوْنَ في الأَمْثالِ : (كَافٍ خَيْرهُ وَشَرّهُ) .

وَالهُجُومُ الَّذِي شَنَّهُ أَبُو فِرَاسٍ عَلَى صِغَارِ الحارَةِ لا يَعْنِي أَنَّهُ يَبْغضُ الأَطْفَالَ . . لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيْدُ أَن يَرَاهُم أَو يَذكُرَ أَحَدٌ من زَبَائنهِ اسمَ طِفلِهِ ، أَو يَحكِي نَادِرَةً واحِدَةً عَنهُ ، فَهُوَ لا يُرِيْدُ أَن يَتَذَكَّرَ طفولَتَهُ الَّتِي لا يَعْلَمُ أَحَدٌ شَيْئاً عنها .

* * *

الحَلاقُ العَازِبُ

جَاءَ أَبُو فِرَاسٍ إلى قَرْيَتِنَا شاباً فَتِيّاً قَبْلَ سَنَواتٍ . سَكَنَ قَرْيَتَنَا واستَقَرَّ فيها بَعْدَ أَنْ بَنَى بَيتَهُ الصَّغِيْرَ عَلَى أَرضٍ اشتَرَاهَا ، جَعَلَ في بَيْتِهِ دُكَّاناً يُطِلُّ عَلَى الشَّارِعِ الضَّيِّقِ في (زنقة) مِنَ الْقَرْيَةِ القَدِيمَةِ لَها اتِّسَاعٌ محدودٌ نُسَمِّيها نَحْنُ (ساحة) ، مَعَ أَنَّها في الْحَقِيْقَةِ مُجَرَّدُ مسَاحَةٍ بسيطةٍ انتُصَبَتْ عَلَى طَرَفِها شَجَرَةٌ ضخمةٌ لا يَعْرِفُ أَحَدٌ عمرَها بالتَّحديدِ .

عَاشَ مُنْفَرِداً وَحْدَهُ ـ ولا يَزالُ ـ زَمَناً طَوِيْلاً ، لا يُخالِطُ أَحَداً مِنَ النَّاسِ إلا مَنْ يَأْتِي إِلَيْهِ في دُكَّانِ الحِلاقَةِ ، ويَكُوْن الحَدِيثُ حَسبَ الحَاجَةِ دُوْنَ زِيادَةٍ أَو نُقْصانٍ ؛ كلمةٌ أو كلمتانِ مِنَ الزَّبُوْنِ وَكَلِمَةٌ أَوْ كَلِمَتَانِ مِنَ الحَلاقِ ، فلا يَخْرُجُ الكَلامُ مِنْ جَانِبِهِ أَوْ مِنْ جَانِبِ الزَّبُوْنِ عَنْ مَوْضُوعِ الحِلاقَةِ .

وَبِما أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَدَيهِ زَوْجَةٌ ولا وَلَدٌ ، فَقَدْ كَانَ يُعْرَفُ أَيْضاً بِالحَلاقِ العَازِبِ . . وَبِسَبَبِ عَرجَتِهِ البَسيطَةِ بِقَدَمِهِ اليمنى ، كَانَ يُلَقَّبُ أَحْيَاناً وَبِالخَفَاءِ بـ « الحَلاقِ الأَعرَجِ » .

أَمَّا هُوَ فلَمْ يَكُنْ يَهتمُّ بِكُلِّ هَذِهِ الأقْوالِ وَالألقابِ ، وَلا يُعْطي لَها بَالاً ، وَلا يَكْترثُ بِكُلِّ مَا يَدورُ حُولَهُ مِنْ قِصَصٍ وَحِكَايَاتٍ .

وَيُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَرَّرَ البَقَاءَ عَازِباً طَوالَ حَيَاتِهِ ، فَلا يَتَزَوَّجُ عَلَى الإطلاقِ ، رُبَّمَا لِيُبعِدَ عَنْهُ شَبَحَ الأَطْفَالِ وَبُكاءَهُم وَصَخَبَهُم وضَجيجَهمْ وَطَلَباتِهمُ المُتَكَرِّرَةَ « المُزْعِجَةَ » الَّتِي لا تَنتَهي ، وَأَسئلَتَهمُ « السَّاذَجَةَ » الَّتِي لا يُحِبُّها ، ولا يُرِيْدُ أَن تَعرفَ الطَّريقَ إلى أُذُنَيْهِ .

وَبِالمُنَاسَبَةِ . . لا أَحَدَ يَدرِي كَيْفَ أَصبَحَ يكنَّى « أَبُو فِرَاسٍ » مَعَ أَنَّه لَيْسَ عِنْدَهُ فِرَاساً ولا غَيرَ فِراسٍ .

وَهُنَالِكَ رِوَايَةٌ شهيرةٌ قَدْ تَكُوْنُ هي الرِّوايةُ الصَّحيحةُ . . وَمَعَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الرِّواياتِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ بِهَا النَّاسُ وَيَتَنَاقَلونَها لَيْسَتْ صَحيحَةً . . وَقَدْ يَكُوْنُ فِيها مُبالغاتٌ كَبِيْرةٌ ، غيرَ أَنَّ النَّاسَ يُحِبُّوْنَ الحَكيَ والكَلامَ والثَّرثَرَةَ ، ويُحِبُّوْنَ الجِدالَ وَالكَلامَ الكَثيرَ حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الكَلامُ صَحيحاً ، المهمُّ أَنْ يَتَكَلَّمُوا وأَنْ يَسمعوا مِنَ النَّاسِ ويُسْمِعوا النَّاسَ القِصَصَ والحِكاياتِ والرِّواياتِ الَّتِي قَدْ تَصحُّ حيناً وَقَدْ لا تَصحُّ أَحْيَاناً عَدِيْدَةً .

ومِنَ النَّاسِ في التَّارِيْخِ مَن هُمْ مَشهورونَ بلَقَبِهِم ، كَمَا هُوَ حَالُ أَبي فِرَاسٍ . . وَكَثِيْرٌ مِنَ القُدَمَاءِ اشْتَهَروا بِالأَلْقَابِ والْكنى أَكْثَرَ مِنْ

أَسْمائِهِمُ الَّتِي حَمَلوهَا مُنْذُ الولادَةِ . . وأَحْيَاناً يَكُوْنُ الاسْمُ أَوِ اللَّقَبُ نَقيضاً أَوِ انْعكاساً لِشَخْصِيَّةِ حَامِلِهِ ، وَقَدْ قِيْلَ في الماضي : « قَدْ تَلْتَقي الأَسْمَاءُ في النَّاسِ والْكنَى كَثِيراً ، وَلَكِنْ مُيِّزوا في الخَلائِقِ » .

وَمِنْ طَرَائِفِ الأَسْماءِ حِوارٌ دَارَ بَيْنَ سَائِلٍ وَمُجيْبٍ عِنْدَمَا سَأَلَهُ : مَا اسْمُكَ ؟ فَقَالَ : بَحْرٌ . ثُمَّ عَادَ وَسَأَلَهُ : أَبو مَنْ ؟ فَقَالَ : أَبُو الفَيْضِ . فَسَأَلَهُ مُجَدَّداً : ابْنُ مَنْ ؟ فَأَجَابَهُ : ابْنُ الفُراتِ . .

عِنْدَهَا قَالَ السَّائِلُ ضاحِكاً وَمُسْتَغْرِباً في آنٍ معاً : « مَا يَنْبَغِي لِصَدِيقِكَ أَنْ يَلْقَاكَ إِلا في زَوْرَقٍ » .

وَكَانَتِ الْغَرَابَةُ الَّتِي اسْتَحْكَمَتْ في السَّائِلِ سَبَبَها أَنَّ اسمَ المَسؤولِ : « بحرٌ » ، واسْمَ ابْنِهِ : « فَيْضٌ » واسْمَ أَبِيهِ : « فُراتٌ » ، وَكُلُّها مُسَمَّياتٌ لمعانٍ تَحْمِلُ في طَيَّاتِها « الماءَ العَظيمَ » ، وَهَذَا مَا دَعَا السَّائِلَ لِيَضْحَكَ مُسْتَغْرِباً لا مُتَهَكِّماً ، زَاعِماً أَنَّ عَلَى مَن يَقصدُهُ مِنَ الأَصْدِقَاءِ بِزِيارَةٍ أَنْ لا يَأْتِي إِلَيْهِ إلا وَهُوَ رَاكِبٌ في زَوْرَقٍ قويٍّ مَتينٍ خشيَةَ الغَرَقِ .

يَقُوْلُ بَعْضُ كِبارِ الْقَرْيَةِ أَنَّ أَبا فِرَاسٍ حَصَلَ عَلَى كُنيتِهِ مِنْ مُخْتارِ الْقَرْيَةِ العَجوزِ بَعْدَ أَنْ سَجَّلَهُ في سِجلاتِ قَرْيَتِنَا ، وَبَعْدَ أَنْ عَلِمَ أَنَّ اسمَ أَبيهِ فِراسٌ . . وَمُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ اشْتَهَرَ بلَقَبِهِ ، وَلم يُعْرَفْ لَهُ اسم .

وَهُنَاكَ مَن يَقُوْلُ أنَّ لَهُ ابْناً اسمُه فراسٌ لَكِنَّهُ مَاتَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ . . لَكِنَّ مُختَارَ قَرْيَتِنَا يَقُوْلُ إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ ما يُثْبتُ أَنَّهُ كَانَ مُتَزوِّجاً مِنْ قبلُ .

وهَكَذَا يَبْقَى ماضيهِ لُغزاً لا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ أَحَدٌ .

عَاشَ بَيْنَنَا بِصَمْتٍ . . وَكَانَ عَلَى الدَّوَامِ مُنْفَرِداً مُنْعَزِلاً ، وَلَوْلاَ مِهْنَتُهُ لَمْ يَهْتَمَّ بِهِ أَحَدٌ ، وَكَانَ لا يَزورُ بيتاً ولا يَطمئنُّ عَلَى مِريضٍ ، ولا يَحضُرُ عُرْساً ولا مُنَاسَبةً مِنَ المُنَاسَباتِ الَّتِي يَحضُرُها كُلُّ أَبْنَاءِ الْقَرْيَةِ .

لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِكَثْرَةِ الزَّبَائِنِ أَو بِقِلَّتِهِم ، وَلَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ عَلَى الإطلاقِ بِأَنْ يقدِّمَ لِلزَّبَائِنِ ما يَحرُصُ عَلَى تَقدِيمِهِ أَصْحابُ المحالِّ والدَّكَاكِينِ المُتَنَوِّعَةِ إِرضاءً لِزَبائِنِهم ، مَا يَجْعَلُهم يَأْتُوْنَ إلى محالِّهم دَائِماً . فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يُوْجَدُ مُنافسٌ لَهُ في القَرْيَةِ . . وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَعبَأُ بِأَنْ يَقُوْمَ أَحَدٌ غَيرهُ بِفَتْحِ دُكَّانِ حِلاقَةٍ فَيَذهَبَ الجَمِيْعُ إِلَيهِ . . كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُهْتَمّاً بِأَنْ يَخلقَ سُكَّانُ الْقَرْيَةِ كلُّهُم في البَلدَاتِ المُجاوِرَةِ ، فلا يَبقى عِنْدَهُ زَبائنُ .

وَفي يَوْمٍ قَرأْتُ أُنشودةً مُضحِكَةً عنْ أَحَدِ الحَلاقِيْنَ . . عِنْدَمَا قَرَأْتُها ارتَسَمَ أَمَامِي حَلاقُ قَرْيَتِنَا في هَذَا المَوقِفِ . . لَكِنَّهُ في الْحَقِيْقَةِ لَمْ يَكُنْ حالُهُ كَحَالِ ذَلِكَ الحَلاَّقِ في الأُنشُودةِ الجَمِيْلَة ؛ الَّذِي سَمِعَ يَوْماً بِأَنَّ شَعرَ النَّاسِ يَتَسَاقَطُ ، فَخَافَ أَلا يَعودَ هُنَالِكَ زَبائنُ يَأْتُوْنَ

دُكَّانَهُ . . وَكَادَ يُصَابُ بِالجُنونِ وَتَطلُعُ رُوحُهُ . .

وَمَا زِلتُ أَذكُرُ تِلْكَ الأُنشودةَ المُضحِكَةَ وَعُنوانَها (الحلاقُ) وَالَّتي كَتَبَها الشَّاعِرُ اليَمَنيُّ عبدُ الحَكيمِ الفَقِيهُ ، وَقَالَ فِيها :

« سَمِعَ الحَلاقُ يَوْماً في الإِذَاعَةِ : أَنَّ شَعرَ النَّاسِ يَتَسَاقَطُ

والصُّلعُ سَيَزدَادونَ سَاعَةً بَعدَ سَاعَةِ

قَالَ : يَا خَوفي عَلَى رِزْقِي

فَمَاذَا سَأُسَوِّي بِالمِقَصَّاتِ وَبِالمِرْآةِ ؟

وَالمِشْطِ الَّذِي يَعْصِمُني مِنْ وَجَعِ الفَاقَةِ ؟

مِنْ عوَزِ المَجاعَةِ ؟

أَتَمَنَّى أَن يَكُوْنَ الصَّلَعُ المَزعُومُ زيفاً وَإِشَاعَةً

وَلَجَ دُكَّانَهُ في التَّوِّ شابَّانِ بِرَأْسينِ بِلا شَعْرِ

كَبطِّيخٍ أَتَى مِنْ حَقْلِ فَلاحٍ كَسولٍ في الزِّراعَةِ

طَلَبَا وَلاَّعَةً

قَالَ : أَشْعِلا مِنْ جَبْهَتي

فَاشْتَعَلَ التَّبغُ

وَكَانَتْ شُرطَةُ الإِطْفاءِ في سَيَّارَةٍ تَخْلُو مِنَ الماءِ

عَلَى مَرْأى مِنَ الدُّكَّانِ

وَكَانَ السَّائِقُ الأَصْلَعُ يُعْطي الضَّابِطَ الأَصلَعَ دَرساً في القَنَاعَةِ

سَقَطَ الحَلاَّقُ مَغْمِيّاً عَلَيْهِ نِصفَ سَاعَةٍ

بَعدَها في غُرفَةِ الإنعَاشِ لمَّا جَاءَهُ الدُّكتورُ

وَالدُّكتورُ أَصْلَعُ

جَسَدُ الحَلاقِ يَسترخِي إلى الأَسفَلِ

كَي نَفسُه تَطلع » .

كَانَ الرَّجُل لِأَوَّلِ مَرَّةٍ يُهرولُ بِعَرجَتِهِ في الزُّقَاقِ مُسْرِعاً ، ويَرْكُضُ خَلْفَ الصِّبْيَانِ في السَّاحَةِ ، وبِطَرِيْقَةٍ مُضحِكَةٍ . . يَلْتَفِتُ خَلْفَهُ كَأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ يَقُوْمَ آباءُ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ يَرْكُضُ خَلْفَهُمْ بِمُلاحَقَتِهِ وَرَدْعِهِ عَنْ تَخْويفِ أَبنائِهِم .

عِلْماً أَنَّ الأَطْفَالَ الصِّغارَ وَالفِتْيَانَ اليافِعينَ وفي أَثناءِ رَكْضِهم في حَلقَةِ السِّباقِ ، لَمْ يَكُنْ يَبْدُو عَلَيْهِمُ الخَوفُ إطْلاقاً ، كَمَا يُتَوقَّعُ أَنْ يَكُوْنَ الخَوفُ في مِثْلِ هَذِهِ الحالِ ، بَلْ كانُوا يَضْحَكُوْنَ ويُقَهْقِهونَ بِنَبرَةٍ أَقْرَب إلى الصِّياحِ مِنْهَا إلى القَهْقَهةِ .

لم تَكُنْ عَرجَتُهُ هي الَّتِي تُضحِكُهُم وتُثيرُ مَرَحَهُم ؛ فَهُمْ يَعْلَمُون أَنهُ من الخطأ الضَّحِكُ عَلَى علَّةٍ مِنَ العِلَلِ التي تُصيبُ الإنسَانَ ، فَكُلٌّ أَمرٍ مِنَ الله . . لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَضْحَكُوْنَ عَلَى الحَدَثِ نَفسِهِ ، وَالسِّبَاقِ

العَجيبِ الَّذي يَدُورُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في قَرْيَتِهِمْ . . وَهَلْ هُنَاكَ أَكْثَرُ إِثَارَة عِنْدَ الصِّغارِ مِنَ الرَّكضِ وَالملاحَقَةِ ؟!

كَانَ يَتَنَقَّلُ بِبَصرِهِ بَينَ الأَطْفَالِ وَبَينَ قَدَمَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَخشَى أَن تَسبقَهُ قَدَمَاهُ في الرَّكضِ ، وَيُحَاوِلُ كَبحَ جِماحِ كِرشِهِ الرَّجْراجِ المتَدلِّي وَالمُتَراقِصِ أَمَامَهُ . . يَرفَعُ كرشَهُ . . يَضغَطُ عَلَيْهِ بِكِلْتا يَدَيهِ لِيَرَى أَينَ يَضَعُ قَدَمَيْهِ . . ثُمَّ يَرفَعُ رَأسَهُ مِنْ جَدِيْدٍ وخصلاتُ شعرِهِ الطَوِيْلِ تُغطِّي جَبينَه العَريضَ حَتَّى تَصلَ إلى عَيْنَيْهِ ، فَيحرِّكُ يَدَهُ اليُمْنَى بِسُرْعَةٍ ، مُتَنَقِّلاً مِن كِرشِهِ المضغوطِ ليعِيدَ شَعرَ رَأسِهِ إلى الوَرَاءِ ، فَيعودُ كرشُهُ للانْتِفاخِ وَالرَّجرَجَةِ ، فِيْمَا يَعودُ شَعرُ رَأسِهِ إلى الوَرَاءِ ، لَكِنَّهُ لا يَلبَثُ أَن يَقفزَ فَوْقَ جَبينِهِ مِنْ جَدِيْدٍ دُوْنَ أَن يَعبَأَ بِكُلِّ هَذَا الجهدِ . . وَالعَرَقُ يَتَصبَّبُ مِنْ أَنْحَاءِ وَجهِهِ .

هَذَا المَشهدُ لَمْ يَكُنْ مُتوقَّعاً في أَنحاءِ قَرْيَتِنَا . . الجَمِيْعُ يَرصُدُ تَفاصيلَ الحَدَثِ . . مِن نَافذَةٍ إلى نافذةٍ . . وَمِن شُرفةٍ إلى شُرفةٍ . .

وَبَعدَ فَترةٍ وَجيزةٍ مِنَ المُطَارَدَة المُضحِكَةِ ، بَدَأَ العَمُّ الحَلاقُ يَلهَثُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ . . فَهُوَ كَمَا قُلْتُ مِن قَبْلُ لَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ مِن بَيتِهِ وَلا مِن مَحَلِّهِ إلا ما نَدَرَ ، ولَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَرَاهُ يَمشي لِفَترةٍ طَوِيْلَةٍ أَو حَتَّى قَصيرَةٍ ، وَكَانَ يَقضي وَقتَه بِالوُقوفِ دَاخِلَ مَحلِّهِ يَحلقُ رُؤوسَ العِبَادِ .

وَكَانَ أَهلُ الْقَرْيَةِ يُلِحُّونَ عَلَيْهِ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ بِالرَّغْمِ مِن قَسْوتِهِ لِكَيْ يحلقَ شَعرَ أَطفالِهِم. . لَكِنَّهُ يَأبَى ذَلِكَ بِإِصرَارٍ. . لِذَا فَإِنَّ الأُمَّهاتِ هُنَّ مَن يَقُمْنَ بِحَلقِ شَعرِ أَبنَائِهِنَّ بِأَنفسِهِنَّ غَالِباً. .

كَمَا أَنَّ بَعْضَ الآباءِ يَأخُذونَ أَبْنَاءَهُم مَعَهُم إلى بَلْداتٍ أُخْرَى مُجاوِرَةٍ عِنْدَمَا يَنتَقِلونَ إِلَيْهَا لِقَضاءِ حاجَةٍ ما ، أَو لِقَضاءِ عُطلةٍ أَو مَا شَابَهَ ، وَيَستَغلُّونَ الفُرصَةَ لِحلقِ شَعرِ أَولادِهِم. . وَأَحْيَاناً يَحلقُ الآباءُ أَيْضاً لِكَيلا يَعودُوا لِلحِلاقَةِ عِنْدَ الحَلاقِ أَبي فِرَاسٍ .

هَذِهِ الأَفكارُ كَانَت تَعْصفُ في ذِهْني وَأَنَا أُراقِبُ بِشَغَفٍ هَذَا المشْهَدَ الَّذِي لَمْ يَنتَهِ حَتَّى السَّاعَة ، رَغمَ كُلِّ مَا أَصَابَ الحَلاقَ مِن إجهادٍ وتَعبٍ. . وَكَمَا يَبْدُو فَقَدْ أُصيبَ أَيْضاً بِإِنْهاكٍ وَتَشنُّجٍ عضَليٍّ ، فَعَضَلاتُهُ لَيْسَتْ مُعْتَادَةً عَلَى الحَرَكَةِ المُتَسَارِعَةِ وَالقَفزِ وَالجَرْيِ المتَتَابِعِ .

لَمْ يَكُنْ مِثْل أَبْنَاءِ الْقَرْيَةِ وَأَطفَالِها الَّذِينَ يَتَنَقَّلونَ عَلَى الدَّوَام مِنْ مَكَانٍ إلى مَكَانٍ ، يَصعَدونَ الجَبَلَ أَو يَهبطونَ الوِدْيانَ ، يَسيرونَ فَترَةً طَوِيْلَةً إلى نَبعِ العَينِ لِيَملَؤوا جرَارَ المَاءِ ، أَو لِيُحضِروا الغِلالَ بِالسِّلالِ عَلَى أَكتَافِهِم أَو عَلَى ظهورِ الدَّواب. . الحَرَكَةُ سِمَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ في حَيَاتِهم. . أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَ لا يَعْرِفُ سِوَى المِشْطِ وَالمِقَصِّ. .

* * *

نِهَايَةُ السِّبَاقِ

الأَطْفَالُ والفِتْيَانُ مَا زَالُوا يَرْكُضُونَ في الزُّقَاقِ ويَدُوْرُوْنَ حَوْلَ السَّاحَةِ ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ إلى الزُّقَاقِ مِنْ مَمَرٍّ خَلْفِيٍّ . . وَالحَلاقُ يُسابِقُهُمْ ويُطارِدُهُم . .

إنَّهُ بِالفِعْلِ أَجْمَلُ وَأَغرَبُ سباقٍ شَاهَدتُهُ في الزُّقَاقِ .

كَانَ صِغَارُ قَرْيَتِنَا مُعْتَادينَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ السِّباقاتِ والمُطَارداتِ المُمْتِعَةِ ، يَخْرُجُوْنَ مِن الزقاقِ يَدُوْرُوْنَ حول الساحةِ ويَخْرُجُوْنَ مِنْها ، ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ إِلَيْهَا في التِفافاتٍ مُتكرِّرَةٍ ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِثْلَ هَذَا السِّباقِ يوماً . .

كَانَتِ السِّباقاتُ تجري بَينهُم لِلتَّسْلِيَةِ والمُتْعَةِ ، أمَّا اليَوم فَهُوَ سِباقُ الهُرُوبِ الكَبِيْرُ مِن عصا أَبي فِرَاسٍ الحَلاقِ المِسكينِ ؛ الَّذِي كَانَ يَرْكُضُ خلفهُم بِكِرشِهِ المُتدلِّي . . دُوْنَ أن يَقوَى عَلَى ضَمِّهِ أوِ الضَّغطِ عَلَيْهِ ومنعِهِ مِن الارتِجاجِ والرَّقصِ عَلَى وقعِ الخُطُواتِ المُتسارِعةِ . . وصار جسدُهُ يرتجُّ كلُّهُ مِثْلَ كِرشِهِ . .

أخِيراً ترفَّقَ بَعْضُ أَهلِ الْقَرْيَةِ بِحالِهِ هَذِهِ ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ رِجالٌ

يَصِيْحُون بِالصِّبْيَانِ لِيَتَفَرَّقُوا وَيَنْتَهِي هَذَا المشهدُ ، بعد مُطاردةٍ فاشلةٍ استمرَّتْ فترةً من الْوَقْتِ ، كانتْ محمُومَةً وكَفيلَةً بأن تُحوِّلَ المكانَ إلى حلبةٍ من المُطَارَدَةِ المُشوِّقَةِ . .

ولم يكدِ الأَطْفَالُ والفِتْيَانُ يَتَفَرَّقُونَ وَيذُوبُونَ مِثْل أَشباحٍ في أزقَّةٍ عتيقةٍ مُتفرقةٍ ومداخل بُيوتٍ طينيَّةٍ بممرَّاتٍ ضَيِّقَةٍ وحيطانٍ مُتلاصقةٍ ؛ حَتَّى وَقَفَ أَبُو فِرَاسٍ كصنمٍ تجمَّد في مكانه ، أو كتمثالٍ برُونزيٍّ غسلتهُ مياهٌ راكدةٌ مُختلطةٌ برمال الأرض . . فاشتدَّ لَونُهُ الدَّاكنُ حدَّةً ، كحدَّة عين الشَّمس وسط النَّهارِ .

كان يتصبَّبُ عَرَقاً من قِمَّةِ رَأسِهِ حَتَّى أَخمَصِ قَدَمَيْهِ . . ثِيابُهُ رَطِبَةٌ ، وكَذَلِكَ شَعرُهُ الطَّوِيْلُ المُشْتَعِلُ شَيباً مِن جَوانِبِهِ ، أمَّا لِحيَتُهُ الدَّائريَّةُ القصِيرةُ السَّوداءُ المُخطَّطةُ بأسْطُر بَيضاءَ فَتَبدُو سهاماً حادَّةً مُتَّجهةً بـأَطرَافها نَحوَ الأَرضِ ، تُشيرُ إلى شَيْءٍ ما دُوْنَ تَفسيرٍ لهَذِهِ الحدَّةِ الَّتِي تُشبِهُ حدَّةَ صاحِبِها .

أمَّا شَارِبَاهُ المُمْتَدَّانِ امْتدَاد الرِّيحِ مَعَ العاصِفةِ ، فمُبْعْثَرانِ مِثْل صُوفٍ منكُوشٍ مُروسِ الطَّرَفِ كَرَأسِ حَرْبَةِ مُقاتلٍ شَرِسٍ ، وَيَظهَرَان وَكَأَنَّهُ لَمْ يُمْرِرْ عَلَيْهِمَا مِقَصّاً ولا « رَقيباً » في حَياتِه ، بِالرَّغْمِ مِن أَنَّهُ حَلاقٌ لِلِّحَى والشَّوارِبِ والرُّؤُوسِ . .

بَدَا مُرْتَجِفاً كَخَارِجٍ مِن بِئْرٍ عميقةٍ ماؤُها مثلَّجٌ غطسَ فِيْهِ حَتَّى كادَ

يَختَنِقُ . . فَقَفَزَ هارباً مَذعُوراً حَتَّى سَقَطَ في حَوضِ تَمَاسيحَ ، كَالمُستَجيرِ منَ الرَّمضاءِ بِالنَّارِ ، فالَّذِي يَستَجيرُ بالنَّارِ ، هارباً منَ الرَّمضاءِ الَّتِي هي الرَّمادُ السَّاخنُ الَّذِي يُغطِّي الجَمرَ ، يَهْرُبُ من الأَسهَلِ إلى الأَصْعَبِ ، ويُضرَبُ هَذَا المَثَلُ لمَن يَعتَمدُ عَلَى مَن يُعقِّدُ الأُمُورَ ولا يُسهِّلُها .

أَو كَمَا يَقُوْلُوْنَ في الأَمثَالِ الشَّاميَّةِ الشَّعبيَّةِ : (مِنْ تَحْتِ الدلْفَةِ إلى تَحْتِ المزْرَابِ) ، وَيُقْصَدُ بِه مَن يَهْرُبُ مِنْ مَكَانٍ سَيِّئٍ إلى مَكَانٍ أَسوَأَ ، وَيُضرَبُ هَذَا المَثَلُ لمَن يَخْرُجُ من ضيِّقٍ إلى أَضيقَ ، ظاناً أَنَّ في ذَلِكَ النَّجاةَ ، فَمثلُ ذَلِكَ مِثْلُ مَن يَخرُجُ مِنْ تَحْتِ (الدلف) وَهُوَ سُقُوطُ الماءِ مِن شرخٍ في سطحِ المنزلِ فينزلُ نُقَطٌ ، أَمَّا إذا خَرَجَ تَحتَ (المزرَابِ) وَهُوَ الَّذِي يَنزلُ عَلَى شَكلِ قَنَاةٍ من عَلَى سَطحِ المَنزلِ ؛ فَهَذَا هُوَ الأَصْعَبُ .

كَانَ الجَمِيْعُ يَنظُرُ نَحوهُ في تَرَقُّبٍ شَدِيْدٍ ، تُرى ما الَّذِي سَيَفْعَلُهُ الآن ؟ هَلْ سَيَدخُلُ الأَزِقَّةَ وَالدُّروبَ سَعياً وَرَاءَ هَذَا وَذَاكَ ؟!

لَحَظاتُ صَمتٍ مهيبٍ مَلأَتِ المَكَانَ ضَجيجاً بسَخَاءٍ . . وَغَمَرتْهُ بِلا اسْتِئْذانٍ كَمَا تَتَسَرَّبُ الرِّمَالُ مِن فَتَحاتِ السِّلالِ الواسِعةِ .

لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ يَوْماً أَن أُشَاهدَ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ عَلَى هَذِهِ الحَالِ . .

وَكَمَا يَبْدُو فَإِنَّهُ في هَذِهِ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ اسْتَيقَظَ مِن سُباتٍ عَميقٍ

وَتَنَبَّهَ إلى حَقيقةِ المَوقِفِ .

اسْتَعَادَ وَعيُهُ فَجْأَةً عَلَى وَاقِعٍ جَديدٍ .

العُيونُ كُلُّها كَانَت جَاحظَةً نَحوهُ تَترَقَّبُ مَاذَا سَيَفْعَلُ ؟

قَبْلَ هَذَا المَوقِفِ لَمْ يَكُنْ يَدُورُ في رَأسِهِ أَنَّ أَهلَ القَرْيَةِ كُلَّهُم أَو عَلَى الأَقَلِّ أَهل البُيُوتِ المُحيطَةِ تَدَاعوا بِسُرْعَةٍ لِيُتَابِعُوا بِحَماسَةٍ بَالِغَةٍ سِباقَ الزقاقِ وَالمُطَارَدَةَ الغَرِيْبَةَ العَنِيْفَةَ .

وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ ارتَخَتْ أَصَابِعُ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ . . سَقَطَتِ العَصَا مِن يَدِهِ بَعْدَمَا كَانَ يُمسِكُهَا بِإِحْكَامٍ .

انثَنَى جَنبُهُ الأَيسَرُ أَكْثَر فَأَكْثَر . . حَتَّى ظَنَّ الجَمِيْعُ أَنَّهُ سَيَقَعُ عَلَى الأَرْضِ . . لَكِنَّهُ تَمَاسَكَ ، ثُمَّ اعتَدَلَ ، وَانحَنَى ملتَقِطاً عَصَاهُ مِنْ جَدِيْدٍ . . وَسَارَ مُتَوَكِّئاً عَلَيْها حَتَّى وَقَفَ أَمَامَ دُكَّانِ الحِلاقَةِ المُطِلِّ عَلَى السَّاحَةِ . . ثُمَّ اخْتَفَى وَرَاءَ بابِ الدُّكَّانِ .

لَمْ يَعُدِ الضَّجيجُ إلى السَّاحَةِ مِنْ جَدِيْدٍ وَلَم تَدُبَّ فيها الحَيَاةُ مثلَمَا هي عَادَةً . . وَلَمْ يَعُدِ النَّاسُ إلى أَعمَالِهم وَأَشغَالِهم . . وَبَدَأتُ أَسمَعُ أَصوَاتاً وَهَمَسَاتٍ مِن هُنا وَهُنَاكَ .

أُمٌّ تُعاتِبُ ابنَهَا بِدَلالٍ . . أَبٌ يَلُومُ ابنَهُ . . ابْتِسامَاتٌ وَنَظَرَاتٌ مُتَبَادَلَةٌ . . وَآخَرُ يَصِيْحُ لائِماً وَلَدَهُ عَلَى هَذِهِ المُطَارَدَةِ الشَّرِسَةِ ، لَكِنَّهُ صِياحٌ مُمتزجٌ بالقَهقَهَاتِ . .

فَرَغمَ أَنَّ الجَمِيْعَ كَانَ يَرَى وَيُتَابِعُ المُطَارَدَةَ ؛ فَإِنَّ أَحَداً مِنْهُمْ لَمْ يَزجرِ ابنَهُ بِحَزمٍ وَبِشِدَّةٍ . . وَكَأَنَّ ما حَدَثَ كَانَ فيلماً أَو مَسرَحيَّةً . . أَوِ استِعرَاضاً لِلتَّسْلِيَةِ والتَّرفِيهِ .

بِالنِّسْبَةِ لِي ؛ كُنْتُ أَشْعُرُ خِلالَ المُطَارَدَةِ بِأَمرَينِ مُختلطَينِ بِبَعْضِهِمَا بَعضاً :

الشُّعورُ الأَوَّلُ كَانَ إِحْسَاساً بالغِبطَةِ وَالسُّرورِ والحَمَاسَةِ وَأَنَا أُتابِعُ كُلَّ هَذِهِ المَشَاهِدِ المُتَلاحِقَةِ الَّتِي لا أَفهَمُ سَبَبَها ، وَالَّتي قَدْ لا تَحدُثُ رُبَّمَا إلا مَرَّةً واحِدَةً في العُمرِ .

وَالآخَرُ فَقَدْ كَانَ إِحْسَاساً حَزيناً لأَنِّي لَمْ أُشَارِكْ أَقرَاني الصِّبْيَانَ في هَذِهِ المُطَارَدَةِ الحَمَاسيَّةِ . . أَو في الْحَقِيْقَةِ في « العَفْرَتَةِ » الَّتِي تُذَكِّرُني بِقَصِيدَةٍ للشَّاعِرِ السُّودانيِّ الرَّاحِلِ صَلاحِ إِبْراهِيمَ تَحتَ عُنوانِ (في الغُربَةِ) وَالَّتي يَقُوْلُ فيها :

« هَلْ يَوْماً ذُقتَ هَوانَ اللَّونِ ؟

وَرَأَيتَ النَّاسَ إِلَيكَ يُشيرُونَ ، وَيُنادُونَ :

العَبْد الأَسْوَد ؟

هَلْ يَوْماً رُحتَ تُراقِبُ لَعبَ الصِّبيَةِ في لَهفَةِ وَحَنَانِ

فإِذَا أَوشَكتَ تَصيحُ بقَلبٍ مُمْتَلِئٍ رَأفَةً :

مَا أَبدَعَ « عَفْرَتَة » الصِّبْيَانِ !

رَأَوكَ فَهَبُّوا خَلفَكَ بِالزَّفَّةِ :

عَبْدٌ أَسْوَدُ

عَبْدٌ أَسْوَدُ

عَبْدٌ أَسْوَدُ » .

وَرَغمَ أَنِّي تَمَنَّيتُ « العَفرَتَةَ » مَعَ صِبيانِ قَرْيَتِنَا ، فَإِنَّ فِكْرَةً لئيمةً عَبَرَتْ رَأْسِي ، أَلا وَهيَ لَو أَنِّي شَارَكتُ لَنْ يَتَسَنَّى لي مُتَابَعَةُ هَذِهِ المَشَاهِدِ النَّادِرَةِ بِكُلِّ التَّفَاصيلِ الَّتِي رَأَيتُهَا . .

وَلَو شَارَكتُ بِالحَدَثِ نَفسِهِ ؛ فَلَن أَشْعُرَ بِلذَّةِ المُشَاهَدَةِ المُمْتِعَةِ ، مَعَ رَغبَتي طَبْعاً بِالتَّمَتُّعِ كَذَلِكَ بِالمُشَارَكَةِ الصِّبْيَانيَّةِ « العَفريتيَّة » . . وَهُنَا « مَكمَنُ الاختلاطِ » .

والْحَقِيْقَةُ أَنَّ سَبَبَ عَدَم مُشارَكَتي لا تُفسَّرُ عَلَى أَنِّي مُهذَّبٌ أَكْثَر منْ هَؤُلاَءِ الأَولادِ « المُشَاغِبِيْنَ » و« الأَوغَادِ » ، كَمَا كَانَ يَصِيْحُ بِهِمُ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ الحَلاقُ . .

لا ، عَلَى الإِطْلاقِ ، فهَذَا شَرَفٌ لا أَدَّعِيهِ . . لَكِنِّي كُنْتُ يَومَهَا عَاجِزاً عَنِ الرَّكضِ بَعْدَ أَنْ وَقَعتُ عَلَى الأَرْضِ أَمْسِ ذَلِكَ اليَوم وَأَنَا أَقُودُ دَرَّاجَتي فَجَرحْتُ قَدَمِي ، وَقَامَ الطَّبيبُ بِرَبطِها بِرِبَاطٍ مُحكَمٍ ،

وَأَوصَاني بالمُكُوْثِ في البَيْتِ ليَومَينِ عَلَى الأَقَلِّ ، حَتَّى يَشفَى الجُرحُ وَيَختَفِي الأَلَمُ .

وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَدرِي حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ ما هُوَ سَبَبُ ثَورَةِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ !

كَانَتِ انطِلاقَتُهُ خَلْفَ الصِّبْيَانِ مُفَاجِئَةً لِلْجَمِيعِ . لا شَكَّ أَنَّ شَيْئاً كَبِيْراً استَدعَى كُلَّ هَذِهِ المُطَارَدَةِ . . وَكَانَ لَدَيَّ شَغَفٌ كَبِيْرٌ بِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ . . وَهَذَا الشَّغَفُ أَقْوَى مِنَ الأَلَمِ الَّذِي أَشْعُرُ بِهِ كُلَّمَا ضَغَطْتُ عَلَى قَدَمِي الجَرِيْحَةِ المُضَمَّدَةِ . . فَتَحَايَلْتُ عَلَى قَدَمِي الجَرِيحَةِ مِنَ الأَسْفَلِ . . حَتَّى انتَصَبتُ وَاقِفاً .

حَمَلتُ عُكَّازَتي ـ أَو هي حَمَلَتني لَسْتُ أَدْري ـ أَتَوَكَّأُ عَلَيْها ، ثُمَّ تَسَلَّلتُ ناحِيَةَ البابِ بِهُدُوْءٍ أُرِيدُ الخُروجَ مِنَ المَنْزِلِ خلسَةً دُوْنَ أَن تَرَاني أُمِّي فَتَبدَأُ بِأَسئِلَتِها المُعْتَادَةِ : « إلى أَينَ أَنتَ ذَاهِبٌ ؟ مَتَى سَتَعودُ ؟ من سَيَذهَبُ مَعَكَ مِنَ الأَصْدِقَاءِ ؟ » . . لَكِنَّهَا هَذِهِ المرَّة سَتَزدَادُ حَتْماً بِسَبَبِ الجُرْحِ في قَدَمِي ، ثُمَّ تَسترسلُ بِالنَّصائِحِ وَالإِرْشاداتِ الَّتِي تَتَوالَى دُوْنَ انقِطاعٍ كَعَادَةِ الأُمَّهاتِ الطَّيِّباتِ : « انتَبِهْ . . لا تَرْكَبِ الدَّرَّاجَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً . . أَلَمْ تَرَ مَا حَدَثَ مَعَكَ أَمسِ ؟ لا تَمْشِ تَحتَ الشَّمسِ . . احْذَرْ مِنَ السَّياراتِ » . . وَهَكَذَا .

لَكِنِّي مَا كِدْتُ أَبدَأُ التَّسلُّلَ . . وَقَبْلَ أَنْ أَقتَربَ مِن بَابِ المَنزِلِ حَتَّى سَمعتُ صَوتَ أُمِّي مِنْ وَرَائي وَكَأَنَّها كَانَتْ تَقرَأُ أَفكارِي . .

نَبَرَاتٌ صَوتُها بَدَتْ وَاثِقَةً تَمَاماً مِنْ سَبَبِ خُرُوجِي : « مُنْذُ مَتَى تَخرُجُ مِنَ البَيْتِ يَا وَلَدُ دُوْنَ اسْتِئْذَانٍ ؟! هَيَّا اذْهَبْ وَعُدْ بِسُرْعَةٍ لِتُخْبِرَني ما هُوَ سَبَبُ هَذِهِ المُطَارَدَةِ الشَّرِسَةِ ؟ » .

ضَحِكْتُ مِنْ أَعْمَاقِ قَلبي وَأَنَا أَسمَعُ صَوتَ أُمِّي تَحثُّني عَلَى الخُرُوْجِ ، وَكَانَ مَا لَدَيهَا من فُضولٍ لِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ أَكْبَرَ مِنَ الفُضُولِ الَّذِي عِنْدِي . . فَهِيَ تُشَجِّعُني عَلَى الخُرُوْجِ مِنَ المَنْزِلِ ولا تَمنَعُني رَغمَ مَا في قَدَمِي من جِرَاحٍ . . فَقَدْ كَانَ لَدَينَا فضولٌ مُشْتَرَكٌ لِكَشفِ سِرِّ الحَدَثِ .

فقُلْتُ مُمَازِحاً مُسْتفِزّاً :

ـ لَيسَ هَذَا سَبَب خُرُوجي ، وَلَيْسَ عِنْدِي أَدْنى رَغْبَةٍ بِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ ، رُبَّمَا هَذَا سِرٌّ ولا أُحِبُّ كَشْفَ أَسرَارِ النَّاسِ . . كُنْتُ أُرِيْدُ الخُرُوجَ لأَتَنَزَّهَ قَلِيْلاً بَعْدَ أَنْ مَلَلتُ المُكُوْثَ بِالمَنْزِلِ مُنْذُ أَمْسِ . . لَكِنِّي غَيَّرْتُ رَأْيي وسَأَعُوْدُ لِغُرْفَتِي لأَنَامَ . . لَكِن قَبْلَ أَن أَذهَبَ إلى غُرْفَتِي سَأَرْوِي لَكِ قِصَّةً عَنْ حَلاقٍ لا يَكْتُمُ السِّرَّ .

ضَحِكَتْ أُمِّي وَقَالَتْ :

ـ هَاتِ حَدِّثْنا يَا وَلَدُ . . فَمِنْكُمْ نَستَفيدُ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْوَقْتَ

الآنَ لَيْسَ وَقْت قِصَصٍ ، نُرِيْدُ أَنْ نَكْتَشِفَ سِرَّ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ . . هَيَّا قُلْ ولا تُبَطِّئْ ، لِنَنْتَهِ مِن هَذِهِ القِصَّةِ .

قُلْتُ وَأَنَا أُحَاوِلُ أَنْ أَبْدُوَ وَأَنِّي لَسْتُ عابئاً بما حَدَثَ :

ـ كَان يَامَا كَان . . يَا سَعد يَا إكرَام . . كَانَ هُنَاكَ في قديمِ الزَّمَانِ بَلَدٌ مِنَ البُلْدَانِ اخْتَفَى مِنْهُ جميعُ الحَلاقِيْنَ ولم يَبقَ للحلاقَةِ دكَّان . . وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَجْرُؤُ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ فِيْهِ حَلاقاً أو صَبيّاً مِنَ الصِّبْيَان . . وَفي يَوْمٍ جَاءَ حَلاقٌ فَوَجَدَ فيها شُغلاً كَثِيراً ، وَكَانَ مُسْتَغْرِباً مِنْ عَدَمِ وُجودِ حَلاقين .

وَقَفَتْ أُمِّي تَتَأَمَّلُني بِصَبْرٍ يَكَادُ يَنْفُدُ ، وَكَانَتْ تُصغِي بِاهْتِمَامٍ وَتَرَقُّبٍ لِنِهَايَةِ هَذِهِ القِصَّةِ . .

فَتَابَعْتُ أَحْكي حِكَايَتي قَائِلاً :

ـ وفي يَوْمٍ جَاءَ جُنُودُ الوالي وأخذُوا الحَلاق إلى القصر . . فَقَالَ الوالي : « إن ما ستُشاهدُهُ اليوم سرٌّ ، فَإِنْ كَشَفْتَهُ قَطعتُ رَأسَكَ وَرَمَيتُ بِهِ إلى رُؤُوسِ الحَلاقِيْنَ الآخَرِيْنَ » . ثُمَّ أَزَالَ الوَالي عَمَامَتَهُ لِيَحْلِقَ لَهُ الحَلاقُ . . فَظَهَرَ في رَأسِهِ قَرنانِ صَغِيْرانِ . . وبَعْدَ انْتِهاءِ الحِلاَقَةِ ذَهَبَ الحَلاقُ إلى بَيْتِهِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ . . وَقَبْلَ أَنْ يَطلعَ الفَجرُ خَرَجَ الحَلاقُ خائِفاً قَلِقاً متَّجِهاً نَحوَ مَنزِلِ حَكِيمِ البَلَدِ ، فَأَيقَظَهُ مِن نَومِهِ وَقَالَ لَهُ : « لَدَيَّ سِرٌّ ولا أَستَطيعُ البَوحَ بِهِ ، وَإن

كَتَمتُهُ سَأَموتُ » . . وَكَانَ يَقصُدُ طَبْعاً أَنَّهُ سَيَموتُ مِن كِتمَانِ السِّرِّ لأَنَّه يُحِبُّ الثَّرثَرَةَ وَكَشفَ الأَسرَار . .

صَارَتْ أُمِّي تَنْظُرُ لي بِحِدَّةٍ وَبِعَينَينِ جَاحِظَتَينِ وَهِيَ تُرِيْدُ إِنْهاءَ هَذِهِ الحِكَايَةِ . . فَتَابَعْتُ حَدِيثِي مُسْرِعاً بِالكَلاَمِ وَدُوْنَ تَوَقُّفٍ :

ـ ضَاقَ صَدرُ الحَكيمِ مِنْهُ ، وَقَالَ وَهُوَ يُحَاوِلُ كَتمَ غَيظِهِ : « اذهَبْ إلى النَّهرِ الوَحيدِ في البَلَدِ ، وَخُذ مَعَكَ زُجَاجَةً صَغِيْرةً لها غِطَاءٌ . . قُلْ بِهَا مَا شِئْتَ ، ثُمَّ اخْتِمْهَا بِإِحْكَامٍ وَأَلْقِها في اليَمِّ » . . وَلَمْ يُكَذِّبِ الحَلاقُ الخَبَرَ ، فَأَسرَعَ إلى النَّهرِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ مَعَهُ زُجَاجَةً صَغِيْرةً . . وَبَعْدَ أَنْ نَفَّذَ الحَلاقُ ما قَالَهُ الحَكيمُ ارْتَاحَ بَالُهُ ، وَذَهَبَ إلى بَيْتِهِ وَنَامَ نوماً عَمِيقاً . . وَقَبْلَ أَنْ يَطلعَ النَّهارُ حَضَرَ الجُنُودُ إلى بَيْتِهِ وَطَرَقُوا البَابَ طَرْقاً شَدِيْداً ، فَاستَيقَظَ مَذعُوراً . . ثُمَّ اعْتَقلُوهُ وَحَمَلُوهُ إلى الوالي . . فَقَالَ لَهُ الوَالي بِغَضَبٍ شَدِيْدٍ :

« أَلَمْ أُحَذِّرْكَ مِن أَن تُفْشِيَ السِّرَّ ؟! لَقَدْ عَثَرتُ على هَذِهِ الزُّجَاجَة في مَاءِ القَصرِ الَّذِي نَجْلبُهُ مِنَ النَّهرِ » . . وفي النِّهَايَةِ عَادَ البَلَد مِنْ جَدِيْدٍ دُوْنَ حَلاقٍ .

ضَحِكَتْ أُمِّي وَقَالَتْ باسْتِهزاءٍ :

ـ آه . . لا بَأْسَ . . تُرِيْدُني أَن أَقتَنعَ بِأَنَّ هَذَا وَقتُ رِوَايَةِ القِصَصِ . . لا بَأْسَ . . قِصَّةٌ جَمِيْلَةٌ . . بَلْ جَمِيْلَةٌ جدّاً جدّاً . . لَكن

هَلْ تَعلَمُ ما هُوَ السُّؤَال الآنَ : مَن هُوَ الضَّحيَّةُ التَّالي !! هَلْ هُوَ الحَلاقُ . . أَم أَنتَ ! هَذِهِ القِصَّةُ فيها عِبْرَةٌ وَحِكْمَةٌ . . حِفْظُ السِّرِّ خصْلَةٌ لا يَتَمَتَّعُ بِهَا غَيرُ الحُكَمَاءِ وَالعُقَلاءِ . . فَاحفَظِ السِّرَّ تَكنْ مِنْهُمْ . . لَكِن إِن لَمْ تحضِرْ لي السِّرَّ وَبِأَسرَعِ وَقتٍ مُمْكِنٍ سَتَكُوْنُ أَنتَ الضَّحيَّة التَّالي . . هَيَّا يَا وَلَدُ لا تُضَيِّعْ وَقْتي وَوَقْتَكَ .

وَقَبْلَ أَنْ أَنْبسَ بِحَرفٍ وَاحِدٍ ، رَمَقَتْني أُمِّي بِنَظْرَةٍ شَدِيْدةِ الحدَّةِ ، ثُمَّ رَمَتْني بِتِلْقَائِيَّةٍ مثيرةٍ للضَّحِكِ بِفُوطَةٍ كَانَت بِيَدِها ، فَالْتَقَطْتُها رَغمَ فُجائِيَّةِ المَوقِفِ . .

كَانَتِ الفُوطَةُ رَطبَةً ، فَقَطرَ مِنْهَا المَاءُ عِنْدَمَا أَصَابَتْني وَتَبَلَّلَتْ ثِيَابي . . فَقُمتُ برَميهَا مِنْ جَدِيْدٍ وَبِشَكْلٍ عَفوي نَحوَ أُمِّي ضَاحكاً ، فَالتَقَطَتهَا بمَهَارَة بَالِغَةٍ كَأنها حَارسُ مَرمَى محترفٌ . . ثُمَّ رَفَعَت سَبابَتَهَا وَهَزتهَا إلى الأَمَام وَإلى الخَلف مُهددَة مُزَمجرَة . . وَالابتسَامَةُ المُصطَنَعَةُ تَرتَسمُ فَوْقَ شَفَتَيهَا لتُظهرَ أَنيَابَهَا ثُمَّ قَالَتْ :

ـ أَيُّهَا الوَلَدُ المُشَاكِسُ المُعَاكِسُ ، سَوْفَ أُخبرُ أَباكَ بأَفعَالكَ الَّتِي تُثيرُ غَضَبي الشَّدِيْدَ .

عُدتُ هُنا وَتَذَكرتُ مِنْ جَدِيْدٍ قصَّةَ الصَّبي المُشَاكِس المُعَاكِس . . فَقُلْتُ وَالضَّحكَةُ تَغلبُ كَلمَاتي وَأَنفَاسي :

ـ إلا أَبي . . أَرجُوك يَا أُمِّي . . أَبي لَنْ يَرحَمَني .

فَقَالَتْ ضَاحِكَةً :

ـ إِذا كُنْتَ تَعتَقدُ أَني سَوْفَ أُرجِئُ العقَابَ حَتَّى أُخبرَ أَبَاكَ ليَقتَص لي منكَ فَأَنتَ مُخطئٌ تَمَاماً . . فَأَنَا لَنْ أَنتَظرَ عَودَةَ أَبيكَ منَ العَمَل مَسَاءً . . بَلْ سَوْفَ أَقتَصُّ منكَ بنَفسي . . مَا رَأيُكَ ؟ فَهَلْ أَنتَ مُستَعدٌّ ؟

ثم ضَحِكْنَا ضحْكَةً كَبِيْرَةً ، وَضَمَّتني أُمِّي بِشِدَّةٍ ، فِيْمَا كُنْتُ أُحَاوِلُ التملصَ من هَذِهِ الضمة . . وَمن بَاقي الكَلام مَعَها . . فقُلْتُ لَها :

ـ دَعيني أَذهَب . . أَلا تُرِيْدُينَ مَعرفَةَ سَبب هَذِهِ المُطَارَدَة ؟

فَقَالَتْ بلا تَرَدد وَبِصَوْتٍ حَازِمٍ قَاطعٍ مرتَفعِ النبَرَات وَالضحكَةُ العَاليَةُ لَمْ تَتَوَقفْ بَعدُ :

ـ اغرب عَن وَجْهِي فَوْراً يَا وَلَدُ . . لا أريد رؤيَتَكَ إلا وَمَعَكَ الخَبَر اليَقين . . هَيَّا اذهَب قَبْلَ أَن أَضربَكَ بالفوطَة مَرةً ثانيَةً .

خَرَجتُ عَلَى الفَور كَمَا أَمَرَتْ أمي . . مِثْلَ السَّهمِ كَيلاَ أَتَلَقَّى الضَّربَةَ الثَّانيَةَ . . وَفي الْحَقِيْقَة . . لَمْ أَكُنْ أَخْشَى ضَرْبَةَ الفوْطَةِ ، لَكِنِّي لا أُرِيْدُ أَنْ تَتبلَّلَ ثِيَابي بالمَاء مَرَّةً ثانيَة . . كَمَا أَنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَعْرِفَ سَبَبَ السِّبَاقِ الَّذِي حَدَثَ في الزُّقَاقِ .

* * *

أَبُو فِرَاسٍ.. وَجْهاً لِوَجْهٍ

خَرَجتُ مِنَ البَيْتِ مُسْرِعاً.. كُنتُ أُلامسُ دَرَجاتِ سلَّمِ المنزِلِ بِقَفَزاتٍ مُتتاليةٍ مُتقاربةٍ كيلا أسقُطَ.. مركِّزاً قوَّتي في كلِّ قَفزةٍ من قفزاتي العاليةِ عَلَى رِجْلِي السلِيمةِ..

وخِلال فترةٍ وجِيزةٍ خرجتُ من بابِ المَبنَى أَسحَبُ قَدَمِي الجَريحَةَ ، مُتَخَطِّياً الوَجَعَ الَّذِي انتَابَنِي فَجْأَةً بهَدَفِ الوصولِ نَاحيَةَ السَّاحَةِ ، لكنَّ الأَلَم اشتَدَّ فَاضطَرَرتُ للوُقُوفِ وَلَم أُكملِ السَّيرَ .

وَقَفتُ قَلِيْلاً لأَستَرِيحَ حَتَّى يَذهَبَ شعوري بالأَلَم.. لَكِنِّي عَاوَدتُ المشْيَ بِبطءٍ خِلالَ لَحَظاتٍ وَلَم أَنتَظِرْ ، مُستَعيناً بِعُكَّازِي كَيلا أَدوسَ بِثقلِي كلِّهِ عَلَى قَدَمِي الجَريحةِ.. وَبَعدَ أَمتارٍ قَلِيْلَةٍ.. بَلَغتُ طَرَفَ الزقاقِ ، مَسرَحَ السِّباقِ الكَبِيْرِ .

هوُ زقاقٌ يُؤدِّي إلى السَّاحَةِ المُقَابِلَةِ لِمَنزِلي مُبَاشَرَةً ، وَالَّتي أُطِلُّ عَلَيْها مِنْ نَافِذَةِ غُرْفَتِي الصَّغِيْرةِ أَتَأَمَّلُ فيها الغَادِينَ والرَّائِحينَ .

وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَمَحْتُ صَدِيْقِي (رياضاً) جاثِياً عَلَى رُكْبَتَيهِ خَلْفَ سُورٍ خشبيٍّ يَرتَفعُ عنِ الأَرضِ حَوَالي المتْر الوَاحِد فَقَط .

كانَ رياضٌ يَرفَعُ رَأسَهُ قَلِيْلاً من خَلْفِ السُّورِ ثُمَّ يُخْفِضُهُ ، مُخْتَلِساً النَّظَراتِ خشْيَةَ أَن يُبصِرَهُ العَمُّ الحَلاقُ .

عِنْدَمَا شَاهَدتُ صَدِيْقِي عَلَى هَذِهِ الحالِ لَمْ أَستَطِعْ كِتْمانَ ضحْكَتي العَالِيةِ .

اعْتقدْتُ لوهْلةٍ أنَّ كُلَّ ما في القَرْيَةِ منْ إنْسٍ وجان وَحَيوانٍ يَطيرُ بِجَنَاحَيهِ أَو يَمشي عَلَى قَدَمَيْهِ وَشَجَرٍ وَحَجَرٍ قَدْ سَمِعَ تِلْكَ الضِّحكَةَ الرَّنَّانَةَ .

غَضبَ رياضٌ غَضَباً شَدِيْداً . . وَبَدَا ذَلِكَ وَاضِحاً عَلَى وَجهِهِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ ، وَزَحَفَ نَحْوِي دُوْنَ أَن يَرفَعَ رَأسَهُ . أَمسَكَ بيَدِيَ اليُمْنَى وَجَذَبَني نَحوَه بِقُوَّةٍ ، فَوَقَعتُ أَرضاً ، وَلَم أَستَطِعِ الثَّبَاتَ مَعَ قَدَمِي المُصَابَةِ ، ولَمْ أَشْعُرْ بأَلَم السَّقطَةِ بِقَدرِ مَا أَصَابَني مِن دَهشَةٍ ، كَمَا أَنِّي كُنْتُ مُتَأثِّراً بِتَفَاصيلِ مَا يَحدُثُ .

أَرَدتُ عَلَى الفَورِ أَن يَشرَحَ لي مَا سِرُّ هَذِهِ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ ، فَأَشَارَ لي بيَدِهِ أَنِ اصْمُتْ كَيلا يَسمَعَنَا العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ . . لَكِنِّي لَمْ أَعبَأْ بِإِشَارَتِهِ ظَنّاً مِنِّي أَنَّ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ قَدْ عَادَ إلى دُكَّانِهِ ، وَأَنَّ المُطَارَدَةَ انتَهَت مُنْذُ فَترَةٍ .

جَلَستُ عَلَى الأَرْضِ وَلَم أَتَمَكَّنْ مِن الجُلُوسِ عَلَى رُكْبَتي كَمَا يَجلسُ رياضٌ . . مَدَدتُ قَدَمِي الجَريحَةَ المُضَمَّدَةَ بِالشَّاشِ الأَبيضِ

أَمَامِي . . فَوَجَدتُ البَيَاضَ وَقَدْ تَحَوَّلَ إلى لَونِ التُّرابِ بَعْدَ أَنْ تَعَفَّرَ الشَّاشُ بِرَملِ الطَّرِيقِ . . فَلَم أُبالِ بِذَلِكَ . . وَكَرَّرتُ السُّؤَالَ لَكِنْ بِصَوْتٍ هَامِسٍ . . كُنْتُ مُتَشوِّقاً لِمَعْرِفَةِ السِّرِّ . . لَمْ أَستَطِعِ الانتِظَارَ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ . . أُرِيْدُ أَنْ أَعْرِفَ .

عَادَ رياضٌ يَختَلِسُ النَّظَرَ من وَرَاءِ السُّورِ . . ثُمَّ جَلَسَ مُسنِداً ظَهرَهُ بَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ إلى ابتِعادِ العَم أَبي فِرَاسٍ . . أَو عَلَى الأَقَلِّ شَعَرَ أَنَّه لَمْ يَعُدْ في خَطَرٍ مِنَ المُطَارَدَةِ . . أَخَذَ رياضٌ نَفَساً عَميقاً . . ابْتَسَمَ ابتِسَامَةً سَاخِرَةً . . حَدَّقَ بي قَلِيْلاً ، ثُمَّ قَالَ :

ـ لَوْلا مَا أَصَابَكَ يَومَ أَمسِ مِن جُرحٍ في قَدَمِكَ لاستَمتَعتَ مَعَنَا في هَذِهِ المُطَارَدَةِ . .

قُلْتُ لَهُ ضاحِكاً :

ـ لا شَكَّ في ذَلِكَ . . لكنَّ استِمتَاعِي بِمُشَاهَدَتِكُم وَمُشَاهَدَةِ العَم أَبي فِرَاسٍ كَانَت أَيْضاً ممْتِعَةً ، وَلا تَقلُّ عَن مُتْعَةِ المُطَارَدَةِ نَفسِها .

تَابَعتُ حَدِيثِي قائِلاً :

ـ كُنْتُ أَجْلِسُ بِهُدُوْءٍ أَتَأَمَّلُكُم وَأَنتُم تَركُضُونَ وَتَركُضُونَ وهُوَ يَرْكُضُ خَلفَكُم بِعُكَّازِهِ . . وَكُنْتُ أَضحَكُ كَمَا لَمْ أَضحَكْ مِنْ قَبلُ . . لكنَّ الموضُوعَ الوَحيدَ الَّذِي لَمْ يسرَّني هُوَ أنِّي لَمْ أَكُنْ أَعرفُ سَبَبَ كُلِّ ذَلِكَ .

ابتَسَمَ رياضٌ مِنْ جَدِيْدٍ ، لَكنَّ ابتسَامَتَه هَذِهِ المرَّة كَانَت ابتسَامَةً ماكِرةً . . وَقَالَ :

ـ لَقَدْ تَعَاهَدتُ مَعَ جَميعِ الأَصدِقَاءِ في المُطَارَدَةِ أَن لا نَقولَ السِّرَّ لأَحَدٍ .

أَحسَستُ أَنَّ رياضاً يُرِيْدُ أَن يُغِيظَني في ذَلِكَ . . فَهُوَ كَمَا يَبْدُو أَحَسَّ بِمَدَى شَغَفي لأَعرفَ السَّبَبَ . . لَكِنَّهُ أَرَادَ أن لا يُعطِيَني الإِجَابَةَ بِسُهُوْلَةٍ . . قُلْتُ له :

ـ لا بَأْسَ . . لَمْ أَعُدْ أُرِيْدُ أَنْ أَعرِفَ شَيْئاً مِنكَ . . سَوْفَ يُخْبِرُني كَثِيرٌ مِنَ الأَصْدِقَاءِ عَنِ السَّبَبِ . . لَقَدْ لَمَحتُ (جَميلاً) يَخْتَبِئُ خَلْفَ الشَّجَرَةِ الكَبِيْرَةِ في السَّاحَةِ . . ويَبْدُوْ أَنَّ العمَّ أَبا فِرَاسٍ ذَهَبَ إلى بَيْتِهِ أَو دُكَّانِهِ وَزَالَ الخَطَرُ . . بِالتَّأْكِيْدِ جَميلٌ سيُخْبِرُنِي الخَبَرَ اليَقينَ . . جَميلٌ أَو أَحَدٌ غَيرُهُ .

ثم قُلْتُ لأُبَيِّنَ لَهُ أَنِّي لَستُ مُبالياً بِهِ . . وَكُنْتُ أُرِيْدُ أَنْ أُغيظَهُ كَمَا أَغَاظَني :

ـ في الْحَقِيْقَةِ . . أَنَا لَمْ أَعُدْ أُرِيْدُ أَنْ أَسْمَعَ الخَبَرَ منكَ .

قُمتُ مِنْ مَكَانِي أَتَوَكَّأُ عَلَى عُكَّازِي ، صَابِراً عَلَى أَلَمِ قَدَمِي . . وَقَفتُ وَاثِقاً مُتَوَجِّهاً نَحوَ الشَّجَرَةِ الكَبِيْرَةِ . . حَذَّرَني رياضٌ مِنَ الخُرُوجِ إلى السَّاحَةِ :

ـ هُنَاكَ احْتِمالٌ أَنْ يَعُوْدَ العمُّ أَبُو فِرَاسٍ .

لَمْ أَشغَلْ نَفْسي بِتَحذِيرِهِ حَتَّى لا يُعيقَني عَن تَحقيقِ غَايَتي . . فَأَنَا لَيْسَ لي عَلاقَةٌ بِالمُطَارَدَةِ هَذِهِ وَلَم أَشتَرِكْ فيها مُنْذُ بِدايَتِهَا . . كَمَا أَنِّي كُنْتُ مُطْمَئِنّاً كَون أَبا فِرَاسٍ عَادَ إلى بَيْتِهِ أو دُكَّانِهِ . . وَمَا أَن مَشيتُ بِضعَ خطواتٍ حَتَّى وَقَعَ أَمرٌ لَمْ يَكُنْ بِالحُسْبَانِ . . خطواتٌ قَلِيْلَةٌ . . سمعتُ صوتَ رياضٍ يَصرُخُ من خَلْفِ السُّورِ الخَشَبِيِّ . . وَسَمعتُ صَوتَ جَميلٍ يَصِيْحُ مِنْ وَرَاءِ الشَّجَرَةِ . . وَسَمعتُ أَصْواتاً لَمْ أُمَيِّزْ بَينَهَا . . كُلُّهُم يُنادُونَني ويَصِيْحُونَ : « اهْرُبْ . . اهرُبْ بِسُرْعَةٍ » .

تَلَفَّتُّ يَميناً بَعْدَ أَنْ أَحسَستُ بِحَرَكَةٍ قَرِيبَةٍ جدّاً منِّي . . وَجَدتُ العمَّ أَبا فِرَاسٍ يَتَوَجَّهُ نَحْوِي مُبَاشَرَةً . .

لِلْوهلَةِ الأولى أَصَابَني رُعبٌ شَدِيْدٌ . . كَيْفَ أَفِرُّ مِن هَذِهِ الوَرْطَةِ الَّتِي أَوْقَعتُ نَفسي فيها ؟! !!

لا شَكَّ أَنَّه يَظُنُّ أَنِّي كُنْتُ ضمنَ مجموعَةِ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ كَانَ يُلاحقُهم ، والآنَ سَوْفَ يَنتَقِمُ مِنِّي لأَمرٍ لا أَعرفُ سَبَبَه وَلَيْسَ لي أَيُّ عَلاقةٍ به ، لَنْ يَنتَظِرَني لَحظَةً واحدةً لأَشرَحَ لَه . . بِالتَّأْكِيْدِ سَوْفَ يَضربُني بِعَصَاه . . لَكِنِّي لَنْ أَسمَحَ لَهُ بأَنَ يَضربَني ، وَسَوْفَ أَدافِعُ عَن نَفسي بعُكَّازِي . . وَهَكَذَا كلُّ واحدٍ مِنَّا سَيضربُ الآخَرَ ، مَعَ أَنِّي لا أحبُّ الضَّربَ ولا المَعَارِكَ ، وأَبتَعِدُ عنِ المشْكِلاتِ إلى أَقصَى

مَا أَستَطيعُ ، أَمَّا هَذِهِ المُشْكِلَةُ فَهِيَ متحكِّمةٌ بي ، ولنْ أَستَطيعَ الفِرارَ مِنْها . .

بَدَأتُ أُفكِّرُ بأنَّ معركَةً ضَروساً سَوْفَ تنشُبُ بَيني وَبَينَ الحَلاقِ خِلالَ لَحَظاتٍ ، فَتَأَهَّبتُ رَغمَ رِجْلِي الجريحةِ استِعداداً لِبدءِ المَعْرَكَةِ . . لا يمكنُ أنْ أستسْلمَ هَكَذا وَبِبَساطَةٍ .

كَانَتِ التَّخيُّلاتُ المُتَلاحِقَةُ تدورُ في رَأْسِي تباعاً وَأَنَا أُشاهدُ أَبا فِرَاسٍ يَتوَجَّهُ نَحْوِي مُبَاشَرَةً . . تأهبت استعداداً لقتال مرير وأحكمت قبضتي عَلَى طَرَفِ العكَّازِ كَفَارِسٍ مُقاتِلٍ يَحمِلُ سَيفاً بَتَّاراً . .

لَمْ يَكُنِ الفرَارُ مِنَ القِتالِ مُتَاحاً بِسُهُوْلَةٍ وَأَنَا بِهَذِهِ الحالِ ، كَمَا أَنَّهُ أَصبَحَ قَريباً جداً بِما لا يَدَعُ مجالاً لأيِّ احتمالٍ آخَرَ ، وَلَمْ يَعُدْ أَمَامِي فُرْصَةٌ لِغَيْرِ خيَارِ المُوَاجَهَةِ ، رِجْلِي المُصَابَةُ لَنْ تُساعِدَني عَلَى الرَّكْضِ . . وَلَن أَتَمَكَّنَ منَ الاختِبَاءِ وَالمنَاوَرَةِ بَعْدَمَا أَصبَحَ عَلَى بُعْدِ خطواتٍ قَلِيْلَةٍ . .

وَقفتُ مُتحفِّزاً لصدِّ أوَّلِ هَجمةٍ يُحتَمَلُ أَن أَتَعَرَّضَ لَها . . اقْتَرَبَ مِنِّي العمُّ أَبُو فِرَاسٍ بِهُدُوْءٍ بَالِغٍ ، مِثْلِ الأَسَدِ الشَّرِسِ عِنْدَمَا يَقتَربُ مِن فَريسَتِه ، يَتَمَدَّدُ عَلَى بَطنِهِ كَيلا يُثيرَ رِيبةَ الضَّحيَّةِ فَتهرُبَ مِنْهُ ، يَقتَربُ مِنْهَا زَحْفاً فَلا تَنتَبِه لاقْتِرَابِهِ . . مُتَحَيِّناً الفُرصَةَ المُبَاغِتَةَ للانقِضَاضِ عَلَيْها وَافْتِرَاسِهَا .

أَصبَحتُ في مُوَاجَهَتِهِ مُبَاشَرَةً . . فَاجَأَتْني نَظَراتُهُ . . كَانَ يَرمُقُني بِعَينينِ دَامِعَتَينِ حَزينَتَينِ ، بَدَأَ عَلَيْهِمَا التَّعبُ الشَّدِيْدُ والاحْمِرارُ ، رُبَّمَا بِسَبَبِ العَرَقِ الحَارِّ المتَسَاقِطِ بِغَزَارَةٍ مِن جَبهَتِهِ ، وَكَانَ شَعرُهُ الرَّطِبُ مُتَعَارِكاً مَعَ بَعضِهِ ، وَيُخْفِي قَلِيْلاً مِن جَبينه مُنْسَدِلاً عَلَى جَانِبٍ مِنْ عَينِهِ اليُمْنَى .

كَانَت هَذِهِ هي المرَّةُ الأولى الَّتِي أَقفُ فيها أَمَامَ العمِّ أَبي فِرَاسٍ وَجْهاً لِوَجْهٍ . . كَمَا كَانَتِ المرَّة الأولى الَّتِي أَنْظُرُ فيها في عَيْنَيْهِ مُبَاشَرَةً وَمِن هَذَا القُربِ . .

لكنْ . . وَرَغمَ صُعوبةِ الموقِفِ ؛ فَقَدْ بَدَأَ خَوفي مِنْهُ يَتَلاشَى شَيْئاً فشَيْئاً . . لمَ تَكُنْ نَظراتُهُ الحادَّةُ مُخيفةً لي عَلَى الإطلاقِ . . لَمْ يُرْعبْني بعصاهُ وَلا بِهَيئَتِه . . كَانَ يَنظُرُ إليَّ بِعَطفٍ وحنانٍ . .

وَقَفَ نحواً مِن نِصفِ دَقيقةٍ . . كَانَ ينتَظرُ رُبَّمَا أَن أفرَّ مِن أَمَامِه كَمَا فرَّ الصِّبْيَانُ الآخَرونَ . .

لا أَدْرِي ما الَّذِي كَانَ يَدورُ في خَلَدِ العم أَبي فِرَاسٍ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ . . كَانَ يحدِّقُ بي مُسْتَغْرِباً . . رُبَّمَا كَانَ يَتَسَاءَلُ عَن سَبَبِ بَقائي مسَمَّراً في مَكَاني . . وَلِمَاذَا لَمْ أَهربْ مِثْلَ الآخَرِيْنَ !! ! . . رُبَّمَا ظَنَّ أَني كُنْتُ أَحتَمي بالعكَّاز الَّذِي بيَدي . . لَكِنَّهُ انتبَهَ أَخيراً إلى

قَدَمِي المضَمَّدةِ بِالشَّاشِ الأَبيَضِ المعَفَّرِ بِالتُّرابِ . . لَمْ يَتكَلَّمْ . . لَمْ يَنقَضَّ عَلَيَّ كَمَا تَوَقَّعتُ . .

دَارَ دَورَةً كَامِلَةً حَولَ نَفسِه . . تَأَمَّلَ المَكَانَ عَلَّهُ يَلمَحُ صَبيّاً مِنَ الصِّبْيَانِ . . لَكِنَّهُمْ جَمِيْعاً كَانوا مُختَبِئِينَ في أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ . .

طَأطَأَ رَأسَه وَأَرخَى كَتِفَيه ثُمَّ سَارَ بِهُدُوْءٍ متَّجِهاً نَحوَ دُكَّانِهِ . . أَغلَقَ البَابَ خَلْفَه . . وَبَقِيْتُ أَقِفُ وَحْدي في مَكَاني مَشْدوهاً دُوْنَ حِراكٍ . .

ثَوَانٍ مَعْدوداتٌ مَرَّتْ عَلَيَّ ثَقِيلَةً جدّاً وَأَنَا لا أَدْرِي مَاذَا أَفْعَلُ . . تَرَدَّدَ سُؤالٌ في رَأْسِي :

« لِمَاذَا لَمْ يَنْقَضَّ عَلَيَّ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ كَمَا كَانَ الجَمِيْعُ مُتَوَقِّعاً ؟ ؟ » .

كَانَتِ المُطَارَدَةُ شَرِسَةً فِيْمَا كُنْتُ صَيْداً سَهْلاً !! ! لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ . . اسْتَدَارَ بِهُدُوْءٍ وَمَضَى بِسَلامٍ ، وَكَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ . .

الغَرَابَةُ دَائِماً مَا كَانَتْ تَحْكُمُ هَذَا الرَّجُلُ وَتَجْعَلُ كلَّ مَنْ يُحِيطُ بِهِ يَنْسُجُ عَنْهُ أَفْكَاراً كَثِيْرَةً مُتَضَارِبَةً . .

نَحْنُ الصِّغار وَعينا عَلَى وُجُودِهِ في قَرْيَتِنَا ، وَمُنْذُ أَنْ تَفَتَّحَتْ عُيُونُنا عَلَى الحَيَاةِ وَنَحنُ نَراهُ مُنْفَرِداً بِنَفْسِهِ حَتَّى عِنْدَمَا يَختَلِطُ مَعَ الزَّبَائِنِ ، لا يَتَكَلَّمُ إلا نادِراً ، فَكَانَ بالنِّسْبَةِ لَنَا كَمَا هُوَ بالنِّسْبَةِ لِلْكِبارِ لُغْزاً مُحَيِّراً .

دَخَلَ دُكَّانَهُ ، وَأَغلَقَ قُفلَ البَابِ مِنَ الدَّاخِلِ . . سَمِعَ الجَمِيْعُ هَذِهِ المَرَّةَ زَعيقَ القِفْلِ وَهُوَ يَدورُ مِنْ وَرَاءِ البَابِ الخَشَبِيِّ . . فَاطْمَأَنُّوا وشَعَرُوا أَنَّهم أَصبَحُوا الآنَ في أَمَانٍ . . وَقَبْلَ أَنْ أَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِي وَجَدتُ صِغَارَ الحيِّ شُرَكَاءَ سِباقِ الزقاقِ وَالمُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ يَخْرُجُ كلٌّ واحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ مَكَانٍ . .

اقْتَرَبُوا مِنِّي مُهنِّئينَ بالسَّلامَةِ وَالنَّجَاةِ بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفَتْ قُلُوبُهم جَمِيْعاً عَنِ الخَفَقَانِ . . وَفَتَحوا أَفْوَاهَهمْ ، وَحَبسُوا أنْفاسهمْ ، وَهُمْ يَرَونَ أَبا فِرَاسٍ وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنِّي وَكَادَ يَفْتكُ بي .

بِصَرَاحَةٍ . . لا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَتَصَوَّرَ مَشَاعِرِي في تِلْكَ اللَّحَظَاتِ . . تَمَلَّكَنِي في البِدَايَةِ خَوفٌ رَهِيبٌ حَتَّى تَيَبَّسَتْ قَدَمَايَ في مَكَانِهما ، وَأَحْسَسْتُ كَأَنِّي وَتدٌ مَغْرُوسٌ في الأَرْضِ ، أَوْ غُصْنٌ يابِسٌ قُطِعَ مِنْ شَجَرَةٍ وَرُمِيَ في مَوقِدٍ مُشْتَعِلٍ . .

طَبِيْعَةُ الإِنْسانِ طَبِيْعَةٌ عَجِيْبَةٌ . . لا يَسْبِقُ خَوْفَهُ اطْمِئْنانٌ . . ولا تَمْلأُ خَابِيَتَهُ المَشْرُوْخَةَ شَجَاعَةٌ كَاذِبَةٌ . . فَإِذَا دَاهَمَتْهُ مُصِيْبَةٌ مبَاغِتَةٌ وَاسْتَوْثَقَ الجَمِيْعُ مِنْ عَجْزِهِ عَنِ الانْتِصَارِ عَلَيْها ؛ تَرَكُوْهُ مُنْفَرِداً في الميْدَانِ . . أَمَّا إِذَا انْتَصَرَ عَلَى غَيْرِ تَوَقُّعٍ مِنْهُمْ ، وَبَرَزَ سَلِيْماً مُعَافىً ، فَسَوْفَ يُبَادِرُهُ منْ حَوْلِهِ بِالتَّهْنِئَةِ وَإِنْ لَمْ ينْصُرُوهُ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِم سَاعَةَ المِحْنَةِ ، بَلْ سَيَأْتُوْنَ إِلَيْهِ عِنْدَمَا يَتَأَكَّدُوْنَ مِن انْتصارِهِ لِيسَاعِدُوهُ

بِقَطْفِ الغَنَائِمِ والثِّمَارِ ، فَيَكُوْنُ النَّصْرُ للْجَمِيْعِ فِيْمَا تَكُوْنُ الخَسَارَةُ لَهُ وَحْدَهُ .

فِعْلاً : إِنَّ الفَشَلَ يَتِيْمٌ وَالنَّجَاحُ مُتَعَدِّدُ الآبَاءِ !

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ أَعْبَأْ بِالغَرَضِ الَّذِي خَرَجْتُ مِنْ أَجْلِهِ . . لَمْ يَعُدْ يُهِمُّني مِنْ قَرِيْبٍ أَوْ بَعِيْدٍ مَعْرِفَةُ سَبَبِ المُطَارَدَةِ الشَّرِسَةِ .

وَجَدْتُ أَنَّ هُنَاكَ عَلاقَةً وَطِيْدَةً نَسَجْتُها بَيْني وَبَيْنَ العمِّ أَبي فِرَاسٍ الحلاقِ . . شَعَرْتُ أَنَّ في عَيْنَيْهِ حَنَاناً كَبِيْراً وَإِحْسَاساً لا نَراهُ في عُيُوْنِ كَثِيْرٍ منَ النَّاسِ . .

تِلْكَ الهُنَيهَاتُ القَصِيْراتُ الَّتِي وَقَفْتُ فِيها قَبَالَةَ أَبي فِرَاسٍ ، وَكَانَتِ المرَّةَ الأُوْلى الَّتِي أَقِفُ فيها أَمَامَهُ مُبَاشَرَةً . . لَمْ يَحْدُثْ أَنْ رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ مِنْ قَبْلُ . . وَلا تَأَمَّلْتُ وَجْهَهُ بِهَذَا القُرْبِ . . كَانَتِ المَسَافَةُ قَرِيْبَةً جِدّاً . . لا تَتَجَاوَزُ المتْرَ الوَاحِدَ . .

كَانَ يُمْكِنُهُ الانْقِضَاضُ عَلَيَّ بِقَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ . . لَكِنَّهُ اكْتَفَى بِرمْقِي بِنَظَرَاتِهِ الحَنُوْنَةِ العَمِيْقَةِ . . نَظَرَاتٌ لا يَرَى الإِنْسَانُ حنُوَّها كَثِيراً في حَيَاتِهِ . . وَددْتُ لَو دَامَتْ هَذِهِ اللَّحَظَاتُ . .

وَرَغْمَ مَا انْتَابَني مِنْ خَوْفٍ في البِدَايَةِ . . فَقَدْ تَلاشَى الخَوْفُ بَعْدَمَا رَأَيْتُ مَا في عَيْنَيْهِ مِنْ صُوَرٍ دَامِعَةٍ وَحِكَايَاتٍ رَائِعَةٍ . . وَزَمَناً يَرْسُمُ سُطُوْرَ الحَيَاة عَلَى جَبِيْنِهِ العَرِيْضِ . .

مَشَيْتُ بِهُدُوْءٍ . . عَائِداً مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ . . لَمْ أَسْأَلْ أَحَداً مِنْ أَصْدِقَائِي مَا هُوَ سَبَبُ المُطَارَدَةِ . . سِرْتُ وَاجِماً نَحْو البَيْتِ . . عَبرْتُ السَّاحَةَ أَسْحَبُ رِجْلِي الجَرِيْحَةَ سَارِحاً بِتِلْكَ النَّظَراتِ .

أُمِّي الَّتِي هَالَها رُؤْيَةُ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ أَمَامِي وهُوَ يحْمِلُ عُكَّازَهُ . . وَكَانَتْ تُتابِعُ المَشْهَدَ مِنْ نَافِذَةِ غُرْفَتِي . . صَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتِها عِنْدَمَا وَجَدتني أَمَامَهُ وَجْهاً لِوَجْهٍ .

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، لَمْ أُمَيِّزْ صَوتَ أُمِّي عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الأَصْواتِ . . لَكِنَّهَا صَمَتَتْ مِثْلَ الآخَرِيْنَ عِنْدَمَا وَقَفْتُ أَنَا وَهُوَ كَالصَّنَمَيْنِ إِزَاءَ بَعْضِنَا بَعْضاً . . كلُّ وَاحِدٍ يُحَدِّقُ في عَيْنِي الآخَرِ . .

وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إلى مَدْخَلِ البِنَاءِ حَيْثُ أُقِيْمُ ؛ وَجَدْتُ أُمِّي بِانْتِظَارِي ، فَسَارَعَتْ إلى ضَمِّي إِلَيْهَا . . وَكَأَنِّي طِفْلٌ صَغِيْرٌ . . ثُمَّ صَعِدْنَا مَعاً وَهِيَ تَسْنِدُني . . لَمْ تَكُنْ أُمِّي رَاغِبَةً بِأَنْ تَعْرِفَ سَبَبَ المُطَارَدَةِ . . بَلْ كَانَتْ تُرِيْدُ أَوَّلاً الاطْمِئْنَانَ عَلَى صَغِيْرِهَا . . أَوَّلُ كَلِمَةٍ قُلْتُهَا لأُمِّي :

ـ لِمَاذَا لَمْ يُمْسِكْ بي وَلَمْ يَضْرِبْني ؟! !! .

كَانَتْ أُمِّي هِيَ أَيْضاً مُسْتَغربَةً أَشَدَّ الاسْتِغرَابِ . . رَبَتَتْ عَلَى كَتِفِي وَقَالَتْ :

ـ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ رَجلٌ طيِّبٌ . . وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يُؤْذِيَ أَحَداً .

ـ لَكِنَّهُ كَانَ يُطَارِدُ الصِّبْيَانَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَفْتكُ بِهِمْ .

ـ رُبَّمَا أَدْرَكَ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ مُشارِكاً في المُطَارَدَةِ .

ـ لا أَظُنُّ ذَلِكَ . . لَمْ يَرَ في البِدَايَةِ قَدَمِي الجَرِيْحَةَ . . صَوَّبَ نَظَرَهُ إلى عَيْني مُبَاشَرَةً . . لَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .

ـ الحَمْدُ لله أَنَّ الأَمْرَ انْتَهَى عَلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ . . لَقَدْ قَلِقْتُ عَلَيْكَ كَثِيراً .

لَمْلَمْتُ نَفْسي . . أَوْ مَا بَقِيَ مِنْها . . وَجَرْجَرْتُ رِجْلِي الجَرِيْحَةَ وَأَنَا لا أَشْعُرُ بِأَلَمِها . . لَمْ تَتَمَالَكْ أُمِّي نَفْسَها وَهِيَ تَرَاني بِهَذَا المَنْظَرِ . . ضَحِكَتْ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِها ضحْكَةً دَوتْ في أَرْجَاءِ المَنْزِلِ . . وَلَوْلا الجُدْرانُ التُّرابِيَّةُ السَّمِيْكَةُ الَّتِي تُحِيْطُ بِنَا ، وَهِيَ جُدْرانٌ عَرِيْضَةٌ قَدِيْمَةٌ تَحْمي مِنْ بَرْدِ الشِّتاءِ وَعَوَاصِفِهِ الَّتِي لا تَرْحَمُ ، ولَوْلا النَّوَافِذُ المُغْلَقَةُ بِإِحْكَام . . لَطَارَتْ ضحْكَتُها إلى أَنْحَاءِ السَّاحَةِ ، وَحَلَّقَتْ في كُلِّ أَزِقَّةِ القَرْيَةِ وَدُرُوْبِها الهَادِئَةِ .

وَمِنَ الطَّبِيْعِيِّ أَنْ تَشْتَهِرَ هَذِهِ الضِّحْكَةُ الطَّائِرَةُ مِثْل تِلْكَ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ الَّتِي سَوْفَ يُسجِّلُها بِالتَّأْكِيْدِ تَارِيْخُ قَرْيَتِنَا بِحُرُوْفٍ كَبِيْرةٍ ، لأَنَّهَا قَرْيَةٌ هادِئَةٌ هَانِئَةٌ لَمْ تَعْرِفْ مِثْل هَذِهِ المُطَارَدَةِ في تَارِيْخِها الطَّوِيْلِ . . كَمَا لَمْ تَعْرِفْ ضحْكَةً طَائِرَةً مِنْ قَبْلُ .

« لِلأَسَفِ !! لَمْ نَعْرِفْ سَبَبَ كلِّ مَا حَدَثَ . . » . قَالَتْ أُمِّي ذَلِكَ مَعَ تنْهيْدَةٍ اخْتَرَقَتْ أُذُني . .

أَجَبْتُهَا :

ـ لَيْسَ مُهِمّاً أَنْ نَعْرِفَ الآنَ . . مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّنَا سَنَعْرِفُ لاحِقاً .

وَلَمْ تَمْضِ سِوَى لَحَظاتٍ حَتَّى سَمِعْنا طَرْقاً قَوِيّاً عَلَى البَابِ . .

ـ افْتَحِ البَابَ يَا سَعِيدُ . . افْتَحِ البَابَ .

« مَنْ ؟ » . . صُحْتُ بِمِلْءِ فَمي .

ـ افْتَحْ . . أَنَا رياضٌ . . افْتحِ البابَ يا سَعيدُ .

سَمِعْتُ أَصْواتَ الصِّبْيَانِ تَتَرَدَّدُ خَلْفَ البَابِ . . قَالَتْ أُمِّي ضَاحِكَةً :

ـ هَا قَدْ جَاءَنا الخَبَرُ اليَقينُ إلى بَيتنَا .

* * *

طَلالٌ سَبَبُ المُشْكِلَة !!

أَسْرَعْتُ إلى البَاب . . فَتَحْتُهُ عَلَى مِصْرَاعَيهِ بِشَكْلٍ سَرِيعٍ ، ثُمَّ تَرَاجَعْتُ إلى الخَلْفِ قَلِيْلاً ، وَلَمْ أَكَدْ أَخْطُو خُطْوَةً صَغِيْرَةً إلى الوَرَاءِ حَتَّى وَقَعَ كلُّ أَصْدِقَائِي أَبْطَالُ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ فَوْقَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً ، وَكَأَنَّهُم كَانوا يُلْقُونَ بِأَثْقَالِهِم فَوْقَ البابِ ، فَمَا أَنْ حَلَلْتُ وِثَاقَهُ حَتَّى انْسَكَبوا جَمِيْعاً .

تَدَحْرَجَ مَنْ كَانَ في الخَلْفِ عَلَى مَنْ كَانَ في الأَمام ، أَمَّا رياضٌ المِسْكِينُ فَاسْتَوَى عَلَى الأَرْضِ مَعَ كلِّ الحمْلِ الَّذِي انْصَبَّ فَوْقَهُ . . وَرَاحَ يَصِيْحُ مُستَنجِداً بِصَوْتٍ مخْنوقٍ . . كَانَ المشْهَدُ مُثيراً للضَّحِكِ أَكْثَر مِنْهُ لِلشَّفَقَةِ .

ثِقلٌ ضَاغِطٌ فَوْقَ رياضٍ المسكينِ صاحِبِ البُنْيَةِ الضَّعيفَةِ ، عِلْماً أَنَّ مِنْ بَيْنِ الأَصْدِقاءِ الَّذِينَ استَقَرُّوا فَوْقَ رِياضٍ مَنْ هُمْ مِنْ أَصْحابِ الأَوْزَانِ الثَّقِيْلَةِ جداً . . لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطاعَةِ رياضٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ . .

مَرَّتْ هُنَيْهاتٌ لَكِنَّهَا بِالتَّأْكِيْدِ كَانَتْ مِنَ الأَثْقَلِ مِنْ بَيْنِ الهُنَيْهاتِ الَّتِي عَاشَها رِياضٌ في حَيَاتِهِ . ثُمَّ بَدَأَ الأَصدِقَاءُ يَتَهَاوونَ وَاحِداً وَرَاءَ

الآخَرِ . . سَقَطوا بِالتَّتابُعِ في حَرَكَاتٍ مُضْحِكَةٍ . . حَتَّى انتَهى الأَمْرُ إلى رياضٍ المسْكينِ ؛ اَلَّذِي لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطاعَتِهِ الوُقُوفُ بِسُهُوْلَةٍ . . فَعَاوَنَهُ الجَمِيْعُ لِيَتَمَكَّنَ منَ الوُقُوفِ . .

وَقَفَ قَلِيْلاً ، ثُمَّ تَرَنَّحَ وَسَقَطَ أَرضاً . . بَدَأَ وَكَأَنَّهُ خَارِجٌ مِن مَعرَكَةٍ . . شَعرُهُ مَنفوشٌ ، وعَيناهُ زائِغتان . . رَقَبَتُهُ تَميلُ إلى الأمام ورأسُهُ مُنحنٍ مِثْل وردةٍ ذابلةٍ ، وحالُهُ يُرثَى لها . . ومنظرُهُ يُحزِنُ العدُوَّ قَبْلَ الصَّديقِ . .

أسرعتْ أُمِّي لتُحضرَ كأسَ ماءٍ ، فِيْمَا حَمَلهُ الأصدِقاءُ ووَضعُوهُ عَلَى الكنبةِ في صالةِ الاسْتِقبالِ . .

عادت أُمِّي بِسُرْعَةٍ تَحمِلُ كَأسَ المَاءِ في يَدِهِا اليُمنَى . . جَلَسَتْ عَلَى رُكبَتَيهَا قربَ الكَنَبَةِ ، بَسَطَتْ يَدَهَا اليُسرَى نَاحيَةَ الكَأسِ وَصَبَّت قَلِيْلاً منَ الماءِ في راحَةِ كَفِّهَا ، ثُمَّ رَشَّت وَجهَهُ بِرَذَاذٍ بَارِدٍ عَلَّهُ يَستَعيدُ تَوَازُنَهُ إثرَ مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنِ انهِمَارِ شَلالٍ بَشَرِيٍّ هَادِرٍ انصَبَّ فَوقَهُ دُوْنَ سَابِقِ إنذَارٍ . . .

قَفَزَ رياضٌ مِنَ الكَنَبَةِ صَائِحاً . . « ماذا هُنَاكَ . . مَاذَا هُنَاكَ ؟ » . غَرِقَ الجَمِيْعُ في زَوبَعَةٍ منَ الضَّحِكِ . .

كَانَ مَنظَرُ رياضٍ وَهُوَ يَصحُو من كَبوَتِهِ مُضْحِكاً . . لَمْ يَكُنْ يَدرِي مَا حَدَثَ مَعَهُ بَعْدَمَا وَقَعَ أَرضاً . . وَيَبْدُوْ أَنَّهُ أُغمِيَ عَلَيْهِ وَلَم يَدرِ

مَا الَّذِي جَرَى لَه . . بَدَأَ يَتَحَسَّسُ يَدَيهِ وَظَهرَهُ . .

حَرَّكَ رَقَبَتَهُ مُحاوِلاً طَقطَقَتِها . . مَدَّ كَفَّيهِ إلى الأَمامِ ، ثُمَّ حَرَّكَ ذِرَاعَيهِ في الهَواءِ وأَرجَعَهُما إلى الوَرَاءِ ، ثُمَّ بَسَطَهُما مَرَّةً أُخرَى إلى الأَمامِ . . يَرفَعُهُما تَارَةً ويُخفضُهُما تَارَةً أُخرَى . . حَتَّى هَدَأَ واطمَأَنَّ بَالُهُ وَتَأَكَّدَ أَنَّه بِخَيْرٍ سَليمٌ مُعافىً . .

ابتَعَدَ الأَصدقَاءُ عَنْهُ وَانتَشَروا في غرفَةِ الاستِقبَالِ ؛ مِنْهُمْ مَن جَلَسَ عَلَى المَقاعِدِ الخَشَبيَّةِ ، وَمِنْهُمْ مَن جَلَسَ عَلَى الكَنَبَاتِ . وأَكْثَرُهُم جَلَسَ عَلَى سجَّادَةِ الأَرضِ ؛ لأَنَّ المَقَاعِدَ وَالكَنَباتِ لا تَسَعُ الجَمِيْعَ . .

وَبَعْدَ أَنْ كَانَ حُضُورُ الأَصدِقاءِ مِنْ أَجْلِ الاطْمِئْنَانِ عَلَيَّ ؛ شَعَرُوا بِالرَّاحَةِ بَعدَ الاطْمِئْنَانِ عَلَى رياضٍ . . فَمَا حَدَثَ مَعَهُ لَمْ يَكُنْ بِالحُسْبَانِ . . ولَمْ يَكُنْ هُدُوءُهُم بَعدَ ذَلِكَ إلا لِلَحظاتٍ قَلِيْلَةٍ . . ثُمَّ انْطَلَقَتِ الضَّحِكَاتُ مِن هنا وَهُنَاكَ ، وَكَانَ الجَمِيْعُ يَتَحَدَّثُ دُوْنَ أَن نَفهَمَ مَاذَا يُرِيْدُ هَذَا وَمَاذَا يُرِيْدُ ذَاكَ . . غَيرَ أَنَّ اسمَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ كَانَ يَتَرَدَّدُ مِنْ حِيْنٍ إلى آخرَ ، حَيْثُ بَدَا أَنَّ الأَحَاديثَ المتَدَاخلَةَ كَانَت عَن تِلْكَ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ .

صُحتُ بِأَعلَى صَوتي أَنِ اهْدَؤُوا ، أُرِيْدُ أَنْ أَفهَمَ . . التَفَتَ

الجَمِيْعُ صَوبي متفَاجِئينَ من صَوتيَ المرتفعِ . . تَوَقَّفَ هَديرُ أَصواتِهم وَتَرَقَّبوا قَولي :

ـ أَلَمْ يَكْفكُمْ كلُّ الزَّعيقِ وَالصِّياحِ في السَّاحَةِ ، وَهُنَا أَيْضاً ؟ عَلامَ كُلّ ذَلِكَ ؟ لِمَاذَا هَذِهِ الجلَبَةُ وهَذَا الضَّجيجُ الَّذِي لا يَنقَطِعُ ؟ أُرِيْدُ أَنْ أَعْرِفَ ما سِرُّ تِلْكَ المُطَارَدَةِ العَجيبَةِ الَّتِي جَرَتْ بَينكم وَبَينَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ الحَلاقِ .

لَكنَّ الضَّجيجَ عَادَ مِنْ جَدِيْدٍ . . الجَمِيْعُ يُرِيْدُ أَن يَشرَحَ الأَمرَ . . الأَصواتُ كَانَت تَتَدَاخَلُ بِشَكْلٍ غَيرِ مَفهومٍ .

وَقَفَتْ أُمِّي وَكَانَتْ مَا تَزالُ تَجْلسُ عَلَى رُكْبَتَيهَا قرْبَ الكَنَبَةِ ، ثُمَّ صَاحَتْ بِصَوْتٍ مُرْتَفعٍ :

تَوَقَّفوا يَا أَوْلادُ ، كَفَى صِياحاً ، لَقَدْ صَدعْتُمْ رَأْسِي . . ما هَذَا ؟! هَلْ أَنتُم في مُباراةِ كُرَةِ قَدَمٍ ؟! كَفَى . . كَفَى .

لم تَكُنْ أُمِّي تُرِيْدُ أَن تَطْرُدَهم مِنَ البَيْتِ ؛ فَقَدْ كَانَ لَدَيهَا فُضولٌ قَوِيٌّ لتَعْرفَ سرَّ المُطَارَدَةِ الغَرِيْبةِ . . لِذَلِكَ تَحَمَّلَت كلَّ هَذَا الضَّجيْجِ حَتَّى النِّهَايَةِ لِتعرفَ السَّبَبَ . . ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتٍ هَادِئٍ بَعْدَمَا سَكَتَ الجَمِيْعُ :

ـ اهدَؤوا يَا أَبْنَائي الصِّغار ! لا تَتَسَرَّعوا بِالكَلامِ . . أَرْجُو أَنْ

يَتَكَلَّمَ وَاحدٌ مِنكُمْ فَقَطْ . . مَنْ يُرِيْدُ أَنْ يَتَحَدَّثَ وَيخبرَنَا بِمَا حَدَثَ ، فَلْيَرْفَع يَدَه .

فَرَفَعَ الجَمِيْعُ أَيْديهِم . . عِنْدَهَا قَالَتْ أمي :

ـ سَأَخْتَارُ أَكْثَرَكُم هُدُوءاً . . هَيَّا تَحَدَّثْ يا طَلالُ . .

ضَحِكَ الجَمِيْعُ ، وَقَالَ أَحَدُهم هازئاً :

ـ مَنْ !! طَلالٌ !! طلالٌ هُوَ أَكْثَرُنا هُدوءاً . . بَلْ هُوَ أَكْثَرُنا ضَجيجاً وَشَغَباً . . بَلْ هُوَ رَأسُ المُشْكِلَةِ كُلِّهَا .

قَالَتْ أُمِّي مُبْتَسِمَةً :

ـ عِفْريتٌ أَنْتَ يَا طَلالُ . . أَنْتَ الأَصْغَرُ بَيْنَهم ، لَكِنْ يَبْدُوْ أَنَّكَ مُشاغبٌ كَبيْرٌ . . هاتِ حَدِّثْنا يا طَلالُ عَمَّا حَدَثَ ، طَالَمَا أَنْتَ رَأْسُ المُشْكِلَةِ كَمَا قَالوا . . هَيَّا تَحَدَّثْ . . لَكن بِلا زِيادَةٍ وَبِلا نُقْصانٍ . .

اعْتَدَلَ طَلالٌ في جلْسَتِهِ . . تَنَحْنَحَ قَلِيْلاً مُعْتَدّاً بِنَفْسِهِ . . طَلَبَ مَاءً لِيَشْرَبَ قَبْلَ أَنْ يَنْطَلقَ بِالكَلامِ المُبَاحِ :

ـ المُشْكِلَةُ بِبَسَاطَةٍ أَنَّنا كُنَّا نَلهُو قربَ دُكَّان العمِّ أَبي فِرَاسٍ . . .

قَاطَعَه أَحَدُ الأَصدِقاءِ :

ـ قُلِ الْحَقِيْقَةَ . . نَحْنُ اقْتَرَبنَا كَثِيراً منَ الدُّكَّانِ فِيْمَا كنَّا نَلْعَبُ وَنَجْري وَنَرْمِي بِالكُرَةِ .

وَقَالَ آخَرُ مُعْتَرِفاً :

ـ عِنْدَمَا اقتَرَبْنَا منْ بَابِ الدُّكَّانِ قمْتُ بِإِدْخالِ رَأْسِي مُسْتَفزّاً العمَّ أَبا فِرَاسٍ . . فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْرَهُ الأَطْفَالَ وَلا يُحِبُّ أَن يَحْلقَ لَهم .

وَهُنَا عَادَ طلالٌ لِيَقولَ :

ـ أَمَّا أَنَا ، فَعِنْدَمَا عدْتُ واقتَرَبْتُ منَ الدُّكَّانِ ؛ وَجَدْتُ نفْسي دُوْنَ قَصْدٍ مِنِّي داخِلَ عَتَبَةِ الدُّكَّانِ . . فَنَظَرَ إليَّ أَبُو فِرَاسٍ نَظْرَةَ غَضَبٍ شَدِيْدٍ . . فقُلْتُ لَهُ مُمَازِحاً وَأَنَا أَعلَمُ كمْ يُغْضِبُهُ الأمْرُ : « أُرِيْدُ أَنْ أَحلقَ شَعْري » . . فَغضبَ غَضَباً شَدِيْداً . . لَكِنَّهُ كَظَمَ غَيْظَهُ وَصَاحَ بي لِكَيْ أَخْرجَ منَ الدُّكَّانِ . . فَخَرجْتُ فَوْراً .

كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي نسْتمعُ إلى ما يقُولُهُ طلالٌ والأصْدقاءُ بشغفٍ . . غيْر أنَّ الأصْدقاءَ تَوقَّفُوا فَجْأَةً في هَذِهِ اللَّحْظَة جَمِيْعاً عنِ الكَلام ، كَأَنَّهُم يُرِيْدُونَ أنْ يُشَوِّقُونا أَكْثَرَ . . أَو رُبَّمَا لِيُخْفُوا عنَّا شَيْئاً ما لا يُرِيْدُون أنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ . .

فَقُلْتُ لَهم :

ـ ها . . ؟ ثُمَّ ما الَّذِي حَدَثَ . . تَكَلَّموا فَكُلُّنا آذَانٌ صاغيةٌ . . .

عَادَ طَلالٌ لِيَتَنَحنَحَ هَذِهِ المَرةَ بمَكرٍ أَكْثَرَ منَ المَرةِ السَّابقَةِ . . ثُمَّ فَرَكَ مُقدِّمَةَ رَأسِهِ كَأَنَّه يُفكِّرُ . . نَظَرَ الجَمِيْعُ نَحوَ طَلال دفعَةً واحِدَةً . . قَالَ طَلالٌ :

ـ ما بِكُمْ تُحَدِّقونَ بي هَكَذَا !! كَأَنَّني أَكَلْتُ طَعَامَكُم . . نَحْنُ جَمِيْعاً مُشتَرِكونَ بِما حَدَثَ . . .

فَقَالَتْ أُمِّي مُوجِّهَةً كَلامَها لِطَلالٍ :

ـ هيَّا طَلال . . هَيَّا يا حَبيبي طَلال . . تَكَلَّمْ . . لا أَحَد يَتَّهمُكَ بِشَيْءٍ . . .

ثمَّ أَردَفَتْ بِنَبْرَةٍ حازِمَةٍ :

ـ أَمَّا أَنتُم فَلا تُقاطِعوهُ . . هَيَّا تَكَلَّم . . لَقَدْ نَفَدَ صَبري .

عَادَ طَلالٌ لِيَتَنَحنَحَ مَرةً ثانِيةً . . ثُمَّ قَالَ بِمَكْرٍ :

ـ مممم . . مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ يا طَلالُ يَا وَلَدُ يا ذكيُّ ؟ مَاذَا حَدَثَ ؟ آه تَذَكَّرتُ . . عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنَ الدُّكَّانِ سَدَّدَ لي أَحَدُ الأَوْلادِ الكُرَةَ فَجَاءَتْ تَحْتَ قَدَمِي مُبَاشَرَةً . . فَمَا كَانَ مِنِّي . . وَدُوْنَ أيِّ سابقِ تصْميمٍ أو تَفْكيرٍ إلا أَنْ سَدَّدتُ الكرَةَ بِضَرْبةٍ طائِشةٍ فَدَخَلَتْ مُبَاشَرَةً إلى دَاخلِ الدُّكَّانِ . . وَدُوْنَ قَصْدٍ أَصابَتِ الكرَةُ وَجْهَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ مُبَاشَرَةً . . فَصَاحَ وَأَزْبَدَ . . وَخَرَجَ عَلَيْنَا قَفْزاً وَعَدْواً . . بَعْدَ أَنْ حَمَلَ عُكَّازَه بِيَدِهِ . . وَبَدَأَتِ المُطَارَدَةُ العَنِيْفَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً .

في هَذِهِ اللَّحْظَةِ انْفَجَرْتُ أَنَا وَأُمِّي بِالضَّحِكِ . . وَاخْتَلَطَ ضَحكُنَا بِالأَسَى وَالحُزْنِ عَلَى مَا أَصَابَ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ . . وَتَعَاطَفْنَا مَعَهُ بِشِدَّةٍ . .

قُلْتُ في نَفْسي : « بِالفِعْلِ ، لَقَدْ كَانَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ مُحِقّاً . . لَوْلا لُطْفُ الله لأَصَابَهُ ضَرَرٌ في وَجْهِهِ . . كَمَا أَنَّهُ كَانَ بِإِمْكَانِهِ الانْتِقامُ منِّي . . فَهُوَ لا يَعْرِفُ من الَّذِي سَدَّدَ الكرَةَ نَحْوهُ . . وَكَانَ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ أَكُوْنَ أَنَا كَبْشَ الفِدَاءِ . . لَكِن الله لَطفَ بي وبه . . » .

وَبَعْدَ أَنْ عَلِمْتُ أَنَا وَأُمِّي سَبَبَ هَذِهِ المُطَارَدَةِ . . وَانْكَشَفَ سِرُّها أَمَامَنَا ؛ قَامَتْ أُمِّي وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ المَطْبَخِ لِتحضِّرَ بَعْضَ البسكْوِيْتِ وَالعَصَائِرِ لِلأَصْدِقَاءِ . . لَكِنَّهُمْ جَمِيْعاً وَقَفوا وَاعْتَذَرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ أَحَدُهُم :

ـ لا نُرِيْدُ أَنْ نُرْهِقَكِ يا خَالَةُ ، عَدَدُنا كَبِيْرٌ .

وَقَالَ آخَرُ :

ـ نَعَم . . كَمَا أَنَّهُ مِنَ الضَّروري أَنْ نَخْرجَ في الحالِ وَنَعوْدَ إلى بُيُوتِنا ؛ لأَنَّنَا نُرِيْدُ أَنْ نُطَمْئِنَ أَهْلَنَا أَيْضاً ، كَمَا أَنَّهُم بِالتَّأْكِيْدِ يُرِيْدُونَ أَنْ يَعْرفُوا هُمْ كَذَلِكَ سَبَبَ الَّذِي حَدَثَ . . ويُرِيْدُونَ بِلا شَكٍّ الاطْمِئْنَانَ عَلَى صِحَّةِ صَدِيْقِنَا سَعِيْدٍ بَعْدَ المَوقِفِ الَّذِي جَرَى لَه .

ابْتَسَمتْ أُمِّي وَقَالَتْ :

ـ لا . . أَبَداً . . لَنْ يَخْرُجَ أَحَدٌ حَتَّى يَأْخذَ كلُّ وَاحدٍ مِنْكُمْ قطْعَةَ حَلوَى .

ثُمَّ أَحْضَرتْ عُلبَةً كَبيْرةً فيها أَنْوَاعٌ كَثِيْرَةٌ مِنَ الحَلْوَى.. وَبَدَأَ كلٌّ واحِدٍ مِنَ الأَوْلاَدِ يَأْخُذُ قِطْعَةً أَو قِطْعَتَينِ وَيَنْسَحِبُ بِهُدُوْءٍ خَارجَ المَنزِلِ.. أَمَّا أَنَا فَقَدْ وَدَّعْتُ أَصْدِقَائِي عِنْدَ البَابِ.. وَلَمْ أَخْرجْ مَعَهم لأَنِّي بَدَأْتُ الآن أَشْعُرُ مِنْ جَدِيْدٍ بأَلَمٍ في قَدَمِي الجَرِيْحَةِ.. وَمَا أَنْ خَرَجَ الجَمِيْعُ حَتَّى اسْتَلْقَيتُ في فِراشِي لأَسْتَرِيْحَ بَعْدَ هَذِهِ المُغَامَرَةِ الغَرِيْبةِ.. وَبَدَأْتُ أَسْتَعِيْدُ تَفَاصِيْلَ مَا حَدَثَ حَتَّى غَرِقْتُ في نَومٍ عَمِيْقٍ..

* * *

لُغْزُ اخْتِفَاءِ الحَلاقِ

في اليَومِ التَّالي لَمْ يَفْتَحِ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ دُكَّانَه ، كَمَا أَنَّ أَحَداً لَمْ يَرَه يَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ . . كَانَ الجَمِيْعُ في حيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِم . . أَجْمَعَ كِبَارُ السِّنِّ أَنَّ مَا حَدَثَ لِلعَمِّ أَبي فِرَاسٍ كَانَ خَطَأً فَادِحاً وَإِسَاءَةً كَبِيْرةً لَهُ وَكَذَلِكَ لِلْقَرْيَةِ بِأَسْرِهَا ، وَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَعْتَذروا مِنْهُ نيَابَةً عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ .

ذَهَبَ وَفدٌ مِنَ الْقَرْيَةِ إلى دُكَّانِهِ ، وَطَرَقوا البَابَ الخَشَبيَّ الَّذِي هُوَ في الوَقْتِ نَفْسِهِ بَاب بَيْتِهِ الَّذِي يَسْكنُه منَ الجهَةِ الخَلفيَّةِ . . لَكِنَّهُ لَمْ يَفْتَحِ البَابَ . . ظَلُّوا يَطْرقونَ البَابَ مرَاراً دُوْنَ فَائِدَةٍ .

ذَهَبَ أَحَدُ الشَّبَابِ إلى البَيْتِ مِنَ الخَلْفِ . . وَرَاحَ يَطْرقُ مَرةً تِلوَ المَرةِ دُوْنَ جَوَابٍ . .

انتَشَرَ في بَلَدنَا خَبَرُ مغَادَرَةِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ لِلْقَرْيَةِ . . زَعَمَ البَعْضُ أَنَّ هُنَاكَ مَن يَظُنُّ أَنَّهُ رآه عِنْدَ أَطرَافِ الْقَرْيَةِ في وَقتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيْلِ يَخْرُجُ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلام كَيْلا يَرَاهُ أَحَدٌ مُغَادِراً ، وفي يَدِهِ حَقِيْبَةٌ صَغِيْرةٌ وأُخْرَى في الحَجْمِ نَفْسِهِ تَقْرِيباً يَضَعهَا عَلَى ظَهْرِهِ . . وَسَارَ في

المَرَاعي حَتَّى اخْتَفَى . . وَأَكَّدَ هَذَا الكَلامَ أَنَّ نَوافِذَ بَيْتِهِ كَانَتْ مُوصَدَةً . . وَلَم يَنْبَعِثْ مِنْهَا ضَوْءٌ مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ .

عِشْنَا بِضْعَةَ أَيَّامٍ في قَلَقٍ شَدِيْدٍ . . وَكَانَ المَوْضُوعُ الوَحِيْدُ الَّذِي شَغلَ قَرْيَتَنَا كُلَّها هُوَ لُغْزُ اخْتِفَاءِ الحَلاقِ أَبي فِرَاسٍ . . يَا تُرَى مَا هُوَ السَّبَبُ ؟ هَلْ أَصَابَهُ مَكْروهٌ مَا . . هَلْ كَانَ السِّباقُ هُوَ السَّبَبُ في اخْتِفَائِهِ المُفَاجِئِ ؟!

اجْتَمَعَ كِبَارُ الْقَرْيَةِ وَطَلَبُوا مِنْ رِجَالِ الشُّرطَةِ في مَخْفَرِ الْقَرْيَةِ تَقَصِّي السَّبَبِ ، وَبَعْضُهُم طَلَبَ مِنَ الشُّرطَةِ كَسْرَ بَاب بَيْتِهِ لَعَلَّهُ كَانَ مريضاً أَوْ بِحَالَةٍ تَحْتَاجُ إلى إِسْعافٍ سريْع . . لَكِنَّ الشُّرطَةَ اسْتَبْعَدَتْ هَذَا الاحْتِمَالَ بعْدَما اسْتَمَعتْ لمَنْ زَعَمَ أَنَّه رَآه عِنْدَ أَطْرَافِ الْقَرْيَةِ ، وَاعْتَقدوا أَنَّه رُبَّمَا غَادَرَ الْقَرْيَةَ لِيَرْتَاحَ قَلِيْلاً بَعْدَ هَذِهِ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ . .

وَبَعْضهم قَالَ إِنَّهُ رُبَّمَا شَعَرَ بِالمَرَضِ فَذَهَبَ إلى مُسْتَشْفَى المَدِيْنَةِ المُجاوِرَةِ . . عِنْدَهَا قَامُوا بِالاتِّصَالِ بِالمُسْتَشْفَى الَّتِي أَكَّدَتْ لَهمْ عَدَمَ وُجُوْدِ أَيِّ مَرِيْضٍ بِاسمِهِ وَبِمُوَاصَفاتِهِ خِلاَلَ الفَتْرَةِ الأَخِيرَةِ .

وَشَرَعَ رِجَالُ الْقَرْيَةِ بِعَمَلِيَّةِ بَحْثٍ واسعةٍ في أَطْرَافِ الْقَرْيَةِ وَجِوَارِهَا . . كَانُوا يَبْحَثونَ بِكُلِّ اهْتِمامٍ حَتَّى شَعَرْنَا أَنَّ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ أَخٌ أَو أَبٌ لِكُلِّ شَخْصٍ في قَرْيَتِنَا الصَّغِيْرَةِ .

لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَذْهَبُ إلى عَمَلِهِ ، وَوَسَّعوا نِطَاقَ البَحْثِ حَتَّى شَمِلَ التِّلالَ وَالجِبَالَ وَالوِدْيَانَ المُحِيطَةَ .

وَبَعْدَ ثَلاثِ لَيالٍ طِوالٍ مِنَ القَلَقِ وَالبَحْثِ والتَّنْقِيبِ . . وَتَحْدِيداً فِي الصَّبَاحِ البَاكِرِ مِنَ اليَومِ الرَّابِعِ . . فُوجِئَ الجَمِيْعُ بِأَنَّ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ أَعَادَ فَتْحَ دُكَّانِهِ مِنْ جَدِيْدٍ .

وَالمفَاجَأَةُ الأَكبَرُ كَانَتْ رُؤْيَتَهُم لَهُ وَهُوَ يُزِيلُ اليَافِطَتَينِ الكَبِيْرَتَينِ المُعَلَّقَتَينِ فِي وَاجِهَةِ الدُّكَّانِ ، أَمَّا المُفَاجَأَةُ الأَكْثَرُ وَقْعاً فَقَدْ كَانَتْ عِنْدَمَا قَامَ بِرَفْعِ يَافِطَةٍ جَدِيدَةٍ يَبْدُوْ أَنَّهُ قَضَى طِيْلَةَ الأَيَّامِ المَاضِيَةِ الَّتِي غَابَ فيها عَنْ بَيتِهِ وَدُكَّانِهِ يَكتُبُهَا بِعِنَايَةٍ وَبِأَلْوَانٍ مُزَرْكَشَةٍ جَمِيْلَةٍ وَبِحُرُوْفٍ كَبِيْرةٍ بِمَعِيَّةِ خَطَّاطٍ قَدِيْرٍ .

حَمَلَتِ اليَافِطَةُ العِبَارَةَ التَّاليَةَ :

(أَجْمَلُ وَأَحْدَث القَصَّاتِ لِشَعْرِ الأَطْفَالِ)

وَمَا أَنْ رَأَى النَّاسُ هَذِهِ العَبارَةَ حَتَّى تَزَاحَمُوا عَلَى بَابِ الدُّكَّانِ . . لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ مَجَالٌ مُتَاحٌ لِسُؤالِ الحَلاقِ عَنْ سَبَبِ هَذَا التَّغْيِيْرِ الكَبِيْرِ . . فَقَبْلَ أَيَّامٍ كَانَ العمُّ أَبُو فِرَاسٍ عَدُوّاً لِلأَطْفَالِ وَلَمْ يَكُنْ يُرِيْدُ استِقْبَالَ أَيِّ طفْلٍ فِي دُكَّانِهِ ، وَاليَوْم أَصْبَحَ دُكَّانُهُ مَقْصداً لجَمِيْعِ أَطْفَالِ القَرْيَةِ . كَانَ الجَمِيْعُ يُرِيْدُ أَنْ يَعْرِفَ سرَّ هَذَا التَّغْيِيْرِ

المُفَاجِئِ . . لَكِنَّ شِدَّةَ الزِّحَامِ لَمْ تعْطِ فرْصَةً لأَحَدٍ بِالسُّؤَالِ ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِها لَمْ تَفْسَحِ المَجالَ بفَتْحِ حِواراتٍ جَانِبِيَّةٍ .

أَمَّا أَنَا فَقَدْ كَانَتْ تَشْغلُني لَحْظَةُ وُقوفي أَمَامَه في يَوْمِ المُطَارَدَةِ الشَّهيْرِ . . لَحظاتٌ مَا زَالَتْ مَاثلَةً أَمَامِي . .

كُنْتُ أَخْشَى الذَّهابَ إلى دُكَّانِهِ لِيَحْلقَ لي شَعْرِي مِثْل سَائِرِ الأَطْفَالِ وَالصِّبْيَانِ وَالفِتْيَانِ ؛ خَوفاً مِنْ أَنْ يَتَجدَّدَ المَوْقفُ السَّابِقُ . . وَيَنْتَقِمَ منِّي . . لَكِنِّي ، وبِالرَّغْمِ مِنْ حَالَةِ الخَوْفِ وَالرُّعْبِ الَّتِي تَمَلَّكَتْني ؛ قَرَّرْتُ بِشَكْلٍ حاسِمٍ الذَّهَابَ إلى دُكَّانِهِ لأَحْلِقَ شَعْرِي الطَّوِيْلَ ، فَقَدْ مَضَى وَقْتٌ طَوِيْلٌ مُنْذُ حَلَقْتُ شَعْرِي آخِرَ مرَّةٍ . .

اللَّحَظَاتُ الَّتِي وَقَفْتُها أَمَامَهُ لَمْ تَغبْ عَن ذَاكِرَتي لَحْظَةً واحِدَةً . . كَانَتْ نَظْرتُهُ مَليْئَةً بِالعَطْفِ وَالحَنانِ رَغْمَ كُلِّ مَظاهِرِ الغَضَبِ وَالانْفِعَالِ .

عِنْدَمَا أَخْبَرْتُ أُمِّي أَنِّي ذَاهبٌ إلى دُكَّانِ الحَلاقِ تَهَلَّلَ وَجْهُها فَرَحاً . . قَالَتْ ـ وَأَنَا أَعْرفُ أَنَّها تُحبُّ دَائِماً مَعرفَةَ الخَبَايَا وَالخَفَايَا ـ :

ـ يَا سَلام . . رُبَّمَا تَستَطيعُ أَن تَعرفَ سِرَّ هَذَا التَّغَيُّرِ المُفَاجِئِ .

قُلْتُ لَها :

ـ هَلْ تَعْتَقِدِينَ يَا أُمِّي أَنَّ لِهَذَا التَّغَيُّرِ عَلاقَةً بِالمُطَارَدَةِ الأَخِيْرَةِ ؟

ـ بِكُلِّ تَأْكِيْدٍ . . لَكِنْ كَيْفَ وَلِمَاذَا ؟ فَهَذَا ما يُمْكِنُكَ أَنْ تَكْتَشِفَهُ بِنَفْسِكَ وَتُخْبِرَني بِهِ . . وَرُبَّمَا عَرفْتَهُ عِنْدَمَا تَقومُ بِحِلاقَةِ شَعْرِكَ عِنْدَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ .

ـ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُوْنَ لي عَلاقَةٌ بِهَذَا التَّغْيِيْرِ ؟

ـ رُبَّمَا . . هُوَ لَمْ يُخْبِرْ أَحداً حَتَّى الآنَ بِمَا حَدَثَ . . لَقَدْ مَرَّتْ بِضْعُ سَاعَاتٍ عَلَى عَوْدَتِهِ إلى الْقَرْيَةِ وَفَتْحِهِ الدُّكَّانَ مِنْ جَدِيْدٍ . . بِالتَّأْكِيْدِ هُنَاكَ سِرٌّ . . لَكِنَّ السُّؤَالَ مَتَى نَعْرِفُ هَذَا السِّرَّ ؟

فَكَّرْتُ قَلِيْلاً بِكَلامِ أُمِّي . . وَقُلْتُ :

ـ لا بُدَّ أَنَّ في الأَمْرِ سِرّاً كَبِيْراً ، فَهَذَا التَّغَيُّرُ المُفَاجِئُ لَهُ أَسرَارُهُ . . كَمَا أَنَّ قَرارَهُ السَّابِقَ بِعَدَمِ حِلاقَةِ شَعْرِ الأَطْفَالِ طوالَ السَّنَواتِ المَاضِيَةِ لَهُ أَيْضاً أَسْرَارُهُ .

قَالَتْ أُمِّي مُشَجِّعَةً لي عَلَى الذَّهَابِ :

ـ لا تُفَكِّرْ كَثِيراً الآنَ ، اذْهَبْ فَوْراً إلى دُكَّانِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ وانتَظِرْ دَوْرَكَ . فهُنَاكَ الكَثِيْرُ مِنَ الأَطْفَالِ يَنْتَظِرُوْنَ دَوْرَهمْ لِلْحِلاقَةِ . . اذْهَبْ وانتَظِرْ . . وَعَسَى أَنْ تَعوْدَ إلَيَّ بِخَبَرٍ جَدِيْدٍ . عِنْدَهَا سأَكُوْنُ فخوْرةً بك كَمَا أَنِّي دَائِماً . . لأَنَّك الولدُ الوحِيْدُ في القَرْيَةِ الَّذِي عرف سرَّ العمِّ أَبي فِرَاسٍ الحلاقِ . . هَيَّا أَسْرِعْ ، وعِنْدَمَا تَعوْدُ ستجدُني

بانتظارِكَ . . لكنْ إذَا عرفت شَيْئاً لا تُخبر أحداً ، أُرِيْدُ أَنْ أَكُوْنَ أوَّلَ مَنْ يَعْرِفُ السرَّ . . اتَّفَقْنَا ؟

قُلْتُ ضاحِكاً : نَعَمْ يَا أُمِّي . . وَهَذَا وَعْدٌ .

ـ إِذاً هَيَّا يَا وَلَدُ ! وَكُنْ صَبوْراً بانْتِظَارِ دَوْرِكَ . . وَعَسى أَنْ تَعوْدَ وَمَعَكَ الخَبَرُ اليَقِيْنُ . . قَالَتْ أُمِّي ذَلِكَ بِسَعَادَةٍ وَاطْمِئْنانٍ وَثِقَةٍ .

مَشيتُ بِخُطىً سرِيْعَةٍ جِدّاً . . قَفَزتُ دَرَجَاتِ السَّلالمِ . . لَيْسَ مِثْل المَرَّةِ الماضِيَةِ بَلْ بِطَرِيْقَةٍ سَرِيْعَةٍ قَوِيَّةٍ . . فَقَدِ الْتَأَمَ جُرْحُ قَدَمِي وَاسْتَعَدتُ قُوَّتي السَّابقَةَ ، هَرْوَلتُ نَحْوَ دكَّانِ الحَلاقِ بِكُلِّ سَعَادَةٍ وَشَغَفٍ .

هَذِهِ هي المَرَّةُ الأُولى الَّتِي أَحلِقُ شَعْرِي عِنْدَهُ ، فَقَدْ تَعِبْتُ منْ حِلاقَةِ أُمِّي لي ، كَمَا تَعِبْتُ مِنَ الذَّهَابِ إلى البَلدَاتِ المُجاورَةِ مَعَ أَبي لأَحْلِقَ شَعْرِي عِنْدَ الحَلاقِيْنَ مِنْ حِيْنٍ إلى آخَرَ . . لِذَا كُنْتُ أُطيلُ شَعْرِي فَلا أحلقُ إلا بَيْنَ فَتَرَاتٍ مُتَبَاعدَةٍ .

اليَومَ كَانَ يَوْماً جَميلاً . . فَهُوَ يَومُ الحِلاقَةِ الأُولى عِنْدَ أَبي فِرَاسٍ .

عِنْدَمَا بَلَغتُ دكَّانَ الحِلاقَةِ كَانَ عَشَرَاتٌ مِنَ الأَوْلادِ مَا زَالُوا يَقِفُونَ بِالدَّوْرِ في طابوْرٍ طَوِيْلٍ . قُلْتُ في نَفْسي : « لَنْ أَحْظى اليَوْم

بِدَوْرِ . . العَدَدُ كَبِيْرٌ . . رُبَّمَا أَنْتَظِرُ بِضْعَ سَاعَاتٍ . . سَأَعُوْدُ في يَوْمٍ آخرَ » .

خَرَجْتُ من الصَّفِّ الطَّوِيْلِ . . لاحَظْتُ أَيضاً خُرُوْجَ بَعْضِ الصِّبْيَانِ الآخَرِيْنَ بَعْدَ أَنْ مَلُّوا منَ الانْتِظارِ طَوِيْلاً . .

ـ لا بَأْسَ مِنَ الحِلاقَةِ غَداً أَوْ بعْد غَدٍ . . أَوْ حَتَّى الأُسْبُوْع المُقْبِل . . قَالَها أَحَدُ الفِتْيَان الأَشِدَّاءِ الَّذِينَ شَارَكُوا في تلكَ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ . . ثُمَّ مَضَى في طَرِيْقِهِ يُحَرِّكُ ذِرَاعَيْهِ في الهَوَاءِ مِثْل مُصَارِعٍ مُحْتَرِفٍ . كَانَ ذَهَابُهُ حافِزاً لِذَهَابِ العَدِيْدِ مِنَ الصِّبْيَانِ .

« لا بَأْسَ . . رُبَّمَا أَحْلقُ غَداً . . لَقَد اعْتدتُ عَلَى الشَّعْرِ الطَّوِيْلِ » . . سَمِعْتُ صَبيّاً صَغِيْراً يَقُوْلُ ذَلِكَ لأُمِّهِ . . ثُمَّ ضَحِكَ ضِحْكَةَ منْتصِرٍ . . يَبْدُوْ أَنَّه لَمْ يَكُنْ يُرِيْدُ حَلاقَةَ شَعْرِهِ ، كَانَ شَعْرُهُ يَمِيْلُ إلى اللَّوْنِ البُنِّيِّ اللامِعِ وَمُصَفَّفاً بِعِنَايَةٍ بَالِغَةٍ . بَدَا شَكْلُهُ جَميلاً بِشَعْرِهِ الطَّوِيْلِ . . لَكِنَّ أُمَّهُ أَحْضَرَتْهُ وَكَانَ سَيُشَارِكُ في « كَرنَفَالِ » بَديع . . أو في حَفلَةِ حِلاقَةٍ جَمَاعِيَّةٍ . . أَحْسَسْتُ بِأَنَّ هُنَالِكَ فُرْصَةً بَدَأَتْ تَلُوْحُ . .

صَارَ الفِتْيَانُ وَالصِّبْيَانُ يَنسَحِبُونَ وَاحِداً تِلْوَ الآخَرِ . . عُدْتُ وَاقْتَرَبْتُ مِنْ طَابورِ الانْتِظَارِ ، حيثُ بَدَأَ العَدَدُ يَتَلاشَى بِسُرْعَةٍ . . فَقَدْ تَعِبَ الصِّغَارُ وَمَلُّوا الانْتِظَارَ ، لَمْ يَتَبَقَّ أَمَامِي سِوَى بِضْعَة صِبيانٍ . . مَا مَنَحَني عَزْماً جَديداً . .

لَمْ تَمْضِ فترَةٌ طَوِيلَةٌ . . وَقَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمسُ وَجَدتُ نَفْسي وَجْهاً إلى وَجْهٍ مِنْ جَدِيْدٍ أَمَامَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ .

عِنْدَمَا وَقَفْتُ أَمَامَهُ كَانَتْ مَشَاعِرِي هَذِهِ المَرَّةَ تَخْتَلِفُ تَمَاماً عَنِ المَشَاعِرِ الَّتِي انْتَابَتْني في المَرَّةِ المَاضِيَة ، لَمْ يَكُنِ الخَوفُ مُسَيْطِراً عَلَيَّ ، كَمَا أَنَّ مَنْظَرَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ كَانَ مُخْتَلِفاً جِدّاً ؛ كَانَ مُبْتَسِماً بِشَكْلٍ مُبَالَغٍ فيه . . وَمِنْ شِدَّةِ ابْتِسَامَتِهِ واتِّسَاعِهَا اعْتَقَدْتُ أَنَّ أَسْنَانَهُ سَوْفَ تَقَعُ مِنْ فَمِهِ .

بَسَطَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ يَدَه مُرَحِّباً بي . . صَافَحَني بِحَرَارَةٍ بَالِغَةٍ . . مَعَ أَنَّه لَمْ يُصَافِحِ الصِّبْيَانَ الَّذِينَ سَبَقوني إلى كُرْسِي الحِلاقَةِ . . جَلَسْتُ عَلَى الكُرْسي وَأَنَا أَتَرَقَّبُ مَاذَا سَيَحدُثُ ، لَمْ يَكُنْ كِرْشُهُ يَبْدُو وَاضِحاً وَمُنْتَفِخاً كَمَا بَدَا خِلالَ السِّباقِ ، فَقَدْ كَانَ مُنْقَبِضاً خَلْفَ « رُوبِ » الحِلاَقَةِ الأَبْيَضِ الطَّوِيْلِ الَّذِي يَنْتَشِرُ عَلَيْهِ بَعْضُ الشَّعْرِ ، وَعَلَى خَصْرِهِ حِزَامٌ عَرِيضٌ يَشدُّ كِرْشَهُ وَيَرْفَعُهُ فَلا يَسْمَحُ لَهُ بالانْدِلاَقِ مِثْلَ يَومِ المُطَارَدَةِ الشَّهِيرِ .

نَظَرَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ إلى عَيْنيَّ وَوَجْهِي مِنْ خِلالِ المِرآةِ . . وَبَدَا لي أَنَّه فَهِمَ مَا يَدورُ بخَلَدِي ، ثم قال :

ـ أَنْتَ مُسْتَغْرِبٌ مِنْ شَكْلِي . . أَبْدُو مُخْتَلِفاً عَنِ الشَّكلِ الَّذِي رَأَيْتَني فِيْهِ المرَّةَ المَاضِيَةَ . . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

لَمْ يَكُنْ أُسلُوبُ طَرْحِ سُؤالِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ يُوحِي بِأَنَّه يُرِيْدُ مَعْرِفَةَ الإِجابَةِ . . وَقَفَ خَلْفِي وفي يَدَيهِ مِشطٌ وَمقصٌّ . . تَجَمَّدَ دَقَائِقَ في مَكَانِه . . ثُمَّ قَالَ :

ـ لِمَاذَا لَمْ تَهْرُبْ مِنْ أَمَامي في ذَلِكَ اليَومِ ؟

فَاجَأَني السُّؤَالُ . . لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ أَن يَسأَلَني ذَلِكَ ، أَوْ أَنْ يَستَعيدَ الذِّكْرَى . ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَنْ يَذكُرَ أَمَامي أَوْ أَمَامَ أَحَدٍ غَيرِي تِلْكَ المُطَارَدَةَ الغَرِيْبَةَ ، وَلَن يَتَحَدَّثَ عَنهَا . فَأَجَبتُهُ بِبَسَاطَةٍ :

ـ كَانَتْ قَدَمِي تُؤْلِمُني مِنْ جُرْحٍ أَصَابَها ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيْعُ الرَّكْضَ .

ـ والآنَ أَرَاكَ بِخَيْرٍ ولله الحَمْدُ . . ظَنَنْتُ وَقْتَهَا أَنَّكَ كُنْتَ مِنْ ضِمْنِ مَجْموعَةِ الصِّبْيَانِ المُشَاغِبِيْنَ .

ـ مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ ، وَهُنَاكَ سُؤالٌ مَا زَالَ يُحَيِّرُني . . . لِمَاذَا ذَهبْتَ وَتَرَكْتَني دُوْنَ عِقابٍ ؟! والآنَ تُؤَكِّدُ لي أَنَّكَ ظَنَنْتَني مِنَ الصِّبْيَانِ المُشَاغِبِيْنَ كَمَا قُلْتَ لي ، فَمَا هُوَ السَّبَبُ ؟

ابْتَسَمَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ وَقَالَ :

ـ هَلْ تُرِيْدُ حَقّاً مَعْرِفَةَ السَّبَبِ ؟

أَجَبْتُهُ بِسُرْعَةٍ : بِالتَّأْكِيْدِ .

ـ سَأَحْلِقُ شَعْرَكَ الآنَ . . وَأُخْبِرُكَ بِذَلِكَ لاحِقاً .

لَمْ يَكُنْ مَا قَالَهُ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ مُحَقِّقاً لِرَغْبَتِي ، لَكِنْ مَا بِاليَدِ حِيلَةٌ ، رُبَّمَا لاحِقاً كَمَا قَالَ ، سَوْفَ أَنْتَظِرُ حَتَّى يَحِينَ الْوَقْتُ اللاحِقُ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنهُ .

وَبَدَأَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ يِحْلِقُ شَعْرَ رَأْسِي بِطَرِيْقَةٍ فَرِيْدَةٍ . . كَأَنَّهُ كَانَ يَهْتَمُّ بِكُلِّ شَعْرَةٍ وَلَيْسَ بِشَعْرِي كُلِّهِ . . مَضَى وَقتٌ طَوِيْلٌ . . وَلَمْ يَحْتَمِلْ مَنْ تَبَقَّى في الخَارِجِ الانْتِظَارَ لِطُوْلِ الْوَقْتِ . . فَتَفَرَّقَ الجَمِيْعُ . . نَظَرْتُ مِنْ خِلاَلِ زُجاجِ الدُّكَّانِ فَرَأَيتُ المَكَانَ المُقَابِلَ للدُّكَّانِ فارِغاً .

قَضيتُ تَحتَ مِقصِّ الحَلاقِ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ كَامِلَةٍ ، دُوْنَ أَنْ يَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ .

ثُمَّ قَالَ : الآنَ عَلَيك أَن تَفخَرَ تَمَاماً بِهَذِهِ القَصَّةِ الجَمِيلَةِ .

بِالفِعْلِ لَقَدْ كُنْتُ مُنْبَهِراً جِدّاً بِطَرِيْقَةِ الحِلاقَةِ ، كَمَا كُنْتُ مُنْبَهِراً بِأُسْلُوبِهِ في تَحْرِيكِ المِقَصِّ والمِشْطِ . . وَفي النِّهَايَةِ دُهِشْتُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ بِالتَّسْرِيحَةِ الرَّائِعَةِ . . فَقَدْ بَدَا مَنْظَرِي مُتَمَيِّزاً ، مِثْل أَشْهَرِ المُمَثِّلِينَ وَالأَبْطالِ العَالَمِيِّينَ .

نَهَضتُ مِنَ الكرسي . . ضَمَمتُ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ إلى صَدْرِي شَاكِراً

لَهُ عَلَى هَذِهِ القَصَّةِ الرَّائِعَةِ . . فَحَضَنَني هُوَ الآخَرُ بِشِدَّةٍ . . كَانَ فرِحاً مِثْلَ طِفْلٍ صَغِيْرٍ .

تَعَجَّبتُ مِنْ هَذِهِ الفَرْحَةِ الَّتِي أَصَابتْهُ . . كَانَ فَخُوراً بِنَفْسِهِ . . وَكَانَ سَعِيداً بِأَنِ احْتَضَنَني .

ـ هَلْ تُرِيْدُ أَنْ تَعْرفَ الْحَقِيْقَةَ ؟ هَلْ تُرِيْدُ أَن تَعْرفَ لِمَاذَا لَمْ أُعَاقِبْكَ . . وَمَا هُوَ سِرُّ كُلِّ هَذَا التَّغَيُّرِ الَّذِي حَدَثَ مَعي . . وَمَا هُوَ سِرُّ حَلاقَتي لِلأَطْفَالِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَرفُضُ الحِلاقَةَ لَكَ وَلَهُم ؟

قُلْتُ بِحَمَاسَةٍ بَالِغَةٍ :

ـ نَعَم بِالتَّأْكِيْدِ . . وَدُونَ أَدْنَى شَكٍّ .

ـ إِذاً . . سَأُخْبِرُكَ السِّرَّ .

* * *

سِرُّ التَّغْيِيرِ المُفَاجِئِ

كُنتُ مُتَحَمِّساً كَثِيراً لِسَمَاعِ سَبَبِ التَّغْيِيرِ الَّذِي حَدَثَ وَأَدَّى إلى تَبَدُّلِ تَصَرُّفاتِ العمِّ أَبي فِرَاسٍ ، وَفَتَحتُ عَيني بِشِدَّةٍ ، وَاقتَرَبْتُ مِنْهُ حَتَّى لا تَضيعَ مِنِّي كَلِمَةٌ واحدةٌ . . قَالَ :

ـ مَا رَأيُكَ أَن نُؤَجِّلَ حَديثَنَا ليَومٍ آخَرَ . . فَأَنَا مُتعَبٌ الآنَ . .

ـ لا . . أَرجُوكَ ، أُرِيْدُ أَنْ أَعْرِفَ السَّبَبَ ، كلُّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ يُرِيْدُونَ مَعْرِفَةَ السَّبَبِ .

قُلْتُ ذَلِكَ بِثِقَةٍ بَالِغَةٍ ، وَاسْتِعْطَافٍ شَدِيْدٍ ، لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيْعُ الانْتظَارَ لَحْظَةً وَاحدَةً ، فَكَيْفَ يُرِيْدُني أَنْ أَنتَظرَ يَوْماً آخَرَ .

ثمَّ تَابعْتُ كَلامِي بِلَهْفَةٍ بَالِغَةٍ :

ـ لا شَكَّ أَنَّكَ تحبُّ المزَاحَ . . هَلْ تَعتَقدُ أَنِّي سَأَصْبرُ بِسُهُوْلَةٍ ليَومٍ آخَرَ ؟! مِنَ المؤَكَّدِ أَنَّكَ تَمزَحُ . . أُرِيْدُ أَنْ أَعْرِفَ هَذَا السِّرَّ وفَوْراً .

ضَحِكَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ ، وَكَانَتْ ضحْكَتُهُ جَمِيْلَةً جدّاً ، وَتَزيد من استغرَابي وَفضولي الشَّدِيْد لِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ . . فَتَابَعَ ضَاحِكاً :

ـ مممم . . في الْحَقِيْقَةِ يَا صَاحبي أَنَّ السِّرَّ يَكمن فيكَ أَنتَ . . . فَأَنتَ هُوَ السِّرُّ .

استَغرَبتُ من هَذِهِ الإجَابَةِ . . تَحَيَّرتُ كَثِيراً ثُمَّ قُلْتُ :

ـ مَاذَا ؟! ! أَنَا هُوَ السِّرُّ . . أَنتَ تُضحِكني يَا عَمُّ . . لَمْ أَفهَمْ مَا تَقولُ . . هَلْ هَذَا لغزٌ جَديْدٌ تُرِيْدُ أَن توقِعَني فيه ؟

وَقَفَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ أَمَامَ بَابِ الدُّكَّانِ ، ووَضَعَ يَدَيهِ خَلْفَ ظَهرِهِ ، فَاندَلَقَ كِرشُهُ إلى الأَمَام بحريَّةٍ أَكبَرَ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ حِزَامَهُ وَ« روب » الحِلاقَةِ الطَّوِيْلَ الأَبْيَضَ . . فَبَدَا كرشُهُ مُنزَلِقاً مِن خَلْفِ قَميصٍ ملوَّنٍ خَفيفٍ ذي أَكْمَامٍ قَصيرَةٍ وَفَتحَةِ صَدرٍ وَاسِعَةٍ .

ضَحِكَ أَبُو فِرَاسٍ طَوِيْلاً حَتَّى خَرَجَ صَوتُهُ من بَاب الدُّكَّان . . فَاجتَمَعَ النَّاسُ عَلَى ضحكَتِهِ الرَّنَّانَة . . فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يَسْمَعونَ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ يَضْحَكُ بِهَذِهِ الطَّريقَةِ الجَمِيْلَةِ .

تَجَمَّعَ عَدَدٌ لا بَأْسَ بِهِ منَ الجيرَانِ وَالعَابرينَ قَريباً منَ الدُّكَّان . . وَبَدَأَ الجَمِيْعُ يَضْحَكُوْنَ سعَدَاءَ لأَنَّهم رَأَوا وَسَمعوا أَخيراً أَبا فِرَاسٍ وَهُوَ يَضحَكُ بَعْدَ أَنْ ظَلَّ لسنينَ عَدِيْدَةٍ متَجَهّماً عَابسَ الوَجهِ . فهَتَفْتُ :

ـ هَيَّا يَا عَمِّي . . هَلْ سَتُخبرُني بقَصْدِكَ أَمْ أَذْهَبُ ؟

قُلْتُ ذَلِكَ بِإلْحَاحٍ حَتَّى أحِثَّهُ عَلَى مُتَابَعَةِ الكَلام ، وَأَنَا في داخلي لا يُمكنُ أَبَداً أَن أَمشيَ دُوْنَ أَنْ أَعْرِفَ السِّرَّ . فَأَجَابَ :

ـ نَعَم . . نَعَم . . أَلا تَعرفُ الصَّبرَ ؟ نَعَم سَأخبرُكَ . . فَأَنتَ الوَحيدُ الَّذِي تَملكُ الحَقَّ الأَكبَرَ بِمَعْرِفَةِ السِّرِّ .

ـ الحقُّ الأَوَّلُ !! مَاذَا تَعني بِذَلِكَ !! مَا عدتُ أَفهَمُ شَيْئاً . . لا بَأْسَ . . لا بَأْسَ . . قُل ما تُرِيْدُ ، فَكلِّي آذَانٌ صَاغيَةٌ .

نَظَرَ أَبُو فِرَاسٍ خَلفَهُ وَاقتَرَبَ من كرسي كَبِيْرٍ وَثيرٍ في زَاويَةِ الدُّكَّانِ وَأَسقَطَ جَسَدَه في هَذَا الكرسي حَتَّى ظَنَنتُهُ سَيغرقُ فيه ، ثُمَّ مَدَّ رِجْلَيه وَكرشَهُ أَمَامَه . . ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ حَنونٍ :

ـ عِنْدَمَا قَابَلتُكَ وَجْهاً لِوَجْهٍ ؛ كَانَتِ المَرَّةَ الأولى مُنْذُ سنينَ عَدِيْدَةٍ أَنظرُ مُبَاشَرَةً في عَينَي طفلٍ ، كُنْتُ لا أحبُّ حَتَّى أَنْ يُذْكَرَ الأَطْفَالُ أَمَامي ، لَكِنِّي عِنْدَمَا رَأَيتُكَ ، وَعِنْدَمَا وَقَعَتْ عَينَاي عَلَى وَجْهكَ ؛ أَعَدتَني سَنَواتٍ وَسَنَواتٍ إلى الوَرَاءِ ، إلى أَيَّامِ طُفُوْلَتِي وَيَفَاعَتي عِنْدَمَا كُنْتُ في سنِّكَ الصَّغِيْرَةِ .

ثمَّ سَكَتَ وَسَادَ صَمْتٌ حَزينٌ . .

ـ وَمَاذَا بَعدُ ؟! ! تَابعْ . . لا تَتَوَقَّفْ عَنِ الكَلامِ ، أَرْجوكَ يَا عَمِّي .

ـ تَذَكَّرتُ طُفُوْلَتِي بكَ . . عِنْدَمَا كُنْتُ في مِثْلِ عمركَ . . كُنْتُ في طولِكَ تَقرِيباً ، وَكَانَ وَجْهِي يُشْبِهُ وَجْهَكَ ، وَكَانَ هُنَالِكَ فَرْقٌ وَاحدٌ بَيني وَبَينَكَ . . هَلْ تَتَخَيَّلُ مَا هُوَ الفَرقُ ؟

ـ لا أَدْرِي . . تَفَضَّلْ تَكَلَّمْ . . أَرْجوْكَ أَكْملْ !

ـ الفَرْقُ الوَحيْدُ أَني كُنْتُ عَاريَ الرَّأْسِ تَمَاماً . .

قُلْتُ مُقاطعاً وَقَدْ أَصَابَتْني الحيْرَةُ :

ـ عَاريَ الرَّأْسِ !! . . غَرِيْبٌ !! وَمَاذَا تَقْصدُ بعَاريَ الرَّأْسِ ؟

الْتَفَتَ حَولَهُ وَكَأَنَّه يُرِيْدُ أَنْ يُخْبِرَنِي بأَمْرٍ دُوْنَ أَنْ يَسْمَعَنَا أَحدٌ . . ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ أَكَادُ أَسْمَعُهُ :

ـ كَانَ أَبي رَحِمَهُ اللهُ لا يَتْرُكُ في رَأْسِي شَعْرَةً وَاحِدَةً . . يَحْلقُ شَعْرِي كُلَّهُ دُوْنَ أَنْ يُوَضِّحَ ليَ السَّبَبَ . . وَكُنْتُ أَغْضَبُ منْ ذَلِكَ أَشَدَّ الغَضَبِ . . وَخَاصَّةً عِنْدَمَا أَذْهَبُ إلى المَدْرَسَةِ .

ـ أَلَمْ يَكُنْ يَشْرَحُ لَكَ ما هُوَ السَّبَبُ ؟

ـ حَاوَلْتُ مرَاراً ، إلى أَنْ قَالَ لي مَرَّةً تَبْرِيْراً لَمْ يقْنعْني بأَنَّه يُرِيْدُ أَنْ يبْعدَ الحَشَرَاتِ الصَّغِيْرَةَ عَنْ رَأْسِي . . تِلْكَ الحَشَرَاتُ الَّتِي تَغْزو بِكَثَافَةٍ رُؤوسَ الأَوْلادِ الصِّغارِ في ذَلِكَ الْوَقْتِ .

قُلْتُ دُوْنَ تَرَدُّدٍ :

ـ لَكِنَّهَا لَيْسَتْ خَطِيرَةً بِشَكْلٍ كَبِيْرٍ . . وَيُمكِنُ القَضَاءُ عَلَيْها بِالعِنَايَةِ وَالنَّظَافَةِ .

ـ هَذَا ما قُلْتُهُ لأَبي . . لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْبَأُ بي . .

ـ وَلِمَاذَا لَمْ تَتَمَرَّدْ وَتَرْفضْ ذَلِكَ ؟

طَأْطَأَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ رَأْسَه ، ثُمَّ قَالَ مُتَابِعاً كَلامَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْني :

ـ كَانَ أَبي حَلاقاً مَاهِراً . . وَكُنْتُ أَنَا طفْلَه الوَحيدَ ، لَمْ يَتَزَوَّجْ بَعْدَمَا مَاتَتْ أُمِّي وَأَنَا طفْلٌ صَغِيْرٌ ، وَكَانَ يَحْلقُ شَعْرَ كُلِّ الأَطْفَالِ في قَرْيَتِنَا بِطَرِيْقَةٍ جَمِيْلَةٍ مُبْتَكَرَةٍ . . أَمَّا أَنَا فَقَدْ كَانَ يَحْلقُ شَعْرِي بِالمُوسَى ، وَيَجْعَلُ رَأْسِي خَالِياً مِنَ الشَّعْرِ فَيُصبحُ لامِعاً مِثْلَ المِرآةِ ، مَا جَعَلني سُخْرِيَةً أَمَامَ كُلِّ أَصْدِقَائِي في المَدرسَةِ . . كُلُّهم يُنَادونَني بـ (يَا أَقرَعُ) . . فَتركتُ المَدرَسةَ رَغمَ حُبِّي لِلْعِلْمِ ، وَعَمِلْتُ في دُكَّانِ أَبي وَتَعَلَّمْتُ الحِلاقَةَ .

وَعِنْدَمَا كَبُرْتُ قَلِيْلاً قَرَّرْتُ مُغَادَرَةَ قَريَتي ، وَأَتَيتُ إلى بَلْدَتِكُمْ يَافِعاً ، وَسَكَنتُ فيها سَنَواتٍ طَوِيْلَةً بَعْدَ أَنْ عَاهَدتُ نَفسي أَن لا أَحْلقَ شَعرَ الأَطْفَالِ أَبَداً ؛ حَتَّى لا يَشْعُرَ الأَطْفَالُ بمَا كُنْتُ أَشْعُرُ به ، وَكُنْتُ أُرِيْدُ أَن يَكُوْنَ شَعرُ كلِّ الأَطْفَالِ طَوِيْلاً .

تَنَهَّدَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ ثُمَّ تَابَعَ قَائلاً :

ـ مَضَتْ سَنَواتٌ طَوِيْلَةٌ حَتَّى يَوم السِّبَاقِ الشَّهيرِ . . تَذَكَّرتُ كلَّ الماضي بتَفَاصِيلِهِ ، وَأَدْرَكتُ أَنِّي مُخْطِئٌ ، تَذَكَّرتُ مَحَبَّةَ أَبي الشَّدِيْدَةَ لي ، لُـمْتُ نَفْسي عَلَى مُقَاطَعَتي إِيَّاهُ كلَّ هَذِهِ السِّنينَ حَتَّى أَصْبَحَ مُسِنّاً ، لَكِنَّهُ مَا زَالَ بحَمْدِ اللهِ بِصِحَّةٍ طَيِّبَةٍ ، ومَا زَالَ حَتَّى اليَومَ يَحْلقُ شَعْرَ الأَطْفَالِ .

كُنْتُ أُتَابِعُ مِنْ حِيْنٍ لآخَرَ أَخْبَارَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ يَزورُ قَرْيَتي ، وَكُنْتُ أَتَلَقَّطُ الأَخْبَارَ مِنْ بَعِيْدٍ ، سَامَحْتُ أَبي ، لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطعْ نسْيَانَ سخْريَةِ أَبْنَاءِ الْقَرْيَةِ . .

كَانَ أَبي يَخَافُ عَلَيَّ كَثِيراً ، وَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِكَيْ لا يَحْسدَني أَحَدٌ ، كَمَا كَانَ يَخْشَى أَنْ أُصَابَ بالمَرَضِ ، عِنْدَمَا هَرَبْتُ مِنَ البَيْتِ أُصيبَ بِحزْنٍ شَدِيْدٍ ، لَكِنِّي أَرْسَلتُ إِلَيْهِ مَنْ يُخبرُهُ أَني بِخَيْرٍ ، وَلَكِنِّي لا أُرِيدُ العَوْدَةَ لِلْقَرْيَةِ .

تَعَجَّبتُ كَثِيراً مِن هَذِهِ القِصَّةِ الغَرِيْبةِ . . لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ هَذَا كلَّهُ ، وَتَعَاطَفتُ مَعَ العمِّ أَبي فِرَاسٍ تَعَاطُفاً شَدِيْداً ، وتَأَلَّمتُ مِمَّا حَدَثَ .

قُلْتُ للعمِّ أَبي فِرَاسٍ مُحاولاً إِبْعادَهُ عَنْ هَذِهِ الذِّكرياتِ الحَزينَةِ :

ـ لَكِنَّكَ حَلَقتَ شَعْرِي ، وَبَدَا شَكْلي مُخْتَلِفاً . . بَلْ رائِعاً بهَذِهِ التَّسريحةِ الجَمِيْلَةِ !

ـ نَعَم . . هَذَا صَحيحٌ . . عِنْدَمَا وَقَعتْ عَينايَ عَلَيكَ ، وَرَأَيتُ شَعرَكَ الطَّوِيلَ . . تَذَكَّرتُ نَفسي . . وَتَذَكَّرتُ مَا كَانَ يَحدُثُ مَعي . . فَقُلْتُ في نفسي : « إلى مَتَى أَظَلُّ عَلَى هَذِهِ الحالِ وَالأَطْفَالُ بِحاجَةٍ لي لِيَبْدُوَ شَعرُهم جَميلاً !! يَجِبُ أَنْ أَتَغَيَّرَ حَتَّى أسعدَهم ، وَحَتَّى لا يصابوا بأَي أَذىً يسَبِّبه الشَّعرُ الطَّوِيلُ » . . لَقَدْ كُنْتَ أَنتَ السَّبَبَ ، وَأَنتَ سرُّ قَرَاري . . هَلْ أَدرَكتَ الآنَ مَدَى أَهميَّتِكَ بِالنِّسْبَةِ لِي ؟!

شَعَرْتُ بِاعتِزازٍ شَدِيْدٍ وَأَنَا أَستَمعُ إلى هَذَا الكلامِ . .

وَتَابعَ العَم أَبُو فِرَاسٍ قصَّتَه قائلاً وَالابتسَامَة المشرقَة تَعلو وَجهَه :

ـ الآنَ لَمْ يَعُدِ الأَمرُ يسَبِّبُ لي حزناً ، وَلَمْ يَعُدْ هَذَا السرُّ يحرجني . . اليَوم أَنَا حرٌّ من هَذِهِ الذِّكرَى . . بَلْ أَنَا سَعيد لِلْغَايَةِ . . وَأَنتَ أَيهَا الوَلَد الأَنيقُ سَبَبُ هَذِهِ السَّعادَةِ ، سَوْفَ أَظَلُّ أَشكُرُكَ طوالَ حَيَاتِي ، وَسَأخبرُ الجَمِيْعَ عَن هَذِهِ الحكَايَة وَأَذكرُ لَهم فَضلَكَ عَلَيَّ ، بَلْ أَخبَرت أَبي عِنْدَمَا عدت إِلَيْهِ بَعدَ غيابٍ طَوِيْلٍ ، وَقَبَّلت يَدَيه وَاعتَذَرت مِنْهُ لاختفَائي وَابتعَادي عَنْهُ وَعَن قَرْيَتِنَا وَعَائلَتنَا .

رَغمَ فَرَحي الكَبِيْرِ مِمَّا سَمعت ؛ فَإِنِّي أَبدَيتُ استغرَاباً شَدِيْداً ، وَقُلْتُ لَه :

ـ لَكِنِّي لَمْ أَفْعَلْ شَيْئاً يَا عَمِّي . . وَقَفتُ أَمَامَكَ فَقَط . . وَدُوْنَ قَرارٍ

مسبَقٍ منِّي ، فَقَدْ كُنْتُ مجبَراً عَلَى الوقوف أَمَامَكَ بِسَبب مفَاجَأتكَ لي ، كَمَا أَنَّ رِجْلِي كَانَت جَريحَةً وَتؤلمني ، وَلَمْ أَكُنْ أَستَطيعُ الرَّكضَ وَهيَ بتِلْكَ الحالِ .

ضَحِكَ العَمُّ أَبُو فِرَاسٍ ضحكَةً مدوِّيَةً وَقَالَ :

ـ قَرَّرتُ أَن أَحلقَ لجَميع الأَطْفَالِ الَّذِينَ يَدخلونَ دكَّاني وَدُوْنَ أَيِّ مُقَابِلٍ وَلِمدَّةِ شَهرٍ كاملٍ . . لَكِنِّي لَنْ أَحلقَ شَعرَهم كلَّه ، سَوْفَ أَحلقُ بَعضَه وَأَترِكُ أَكْثَرَه ، وَسَأقدِّم لكلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ تَسريحَةً مميَّزَةً ، لَنْ أَدَعَ طفلاً بَعدَ اليَومِ دونَ تَسريحَةٍ أَنيقَةٍ ، لا أُرِيْدُ أَنْ يَشعرَ الأَطْفَالُ أَنَّ شَعرَهم غَيرُ جَميلٍ . . وَأَن يَعتَقدوا أَني سَبَبُ ذَلِكَ . . هَلْ فَهمتَ لِمَاذَا ؟!

عِنْدَمَا رَأَيتُكَ قُلْتُ في نَفسي إنَّكَ الآنَ تَحتَاج لي ، وبَدَلاً مِن أَن تَغضَبَ مِنِّي سَوْفَ تَقول في المستَقبَل إني كُنْتُ سَبَباً لشَعرِكَ الطفوليِّ الجَميلِ . . وَكُنْتَ أَنتَ الَّذِي أَوحَى لي بِكُلِّ هَذِهِ الأَفكارِ .

قُلْتُ سَعيداً بِهَذَا الكَلامِ :

ـ صَحيحٌ مَا تَقولُ يا عَمِّي . . لَمْ يَكُنْ شَعْرِي جَميلاً . . أُمِّي لا تَعرفُ الحِلاقَةَ ، لَكِنَّهَا كَانَت تَقُصُّ شَعْرِي مِنْ حِيْنٍ إلى آخَرَ . . وَأَحْيَاناً كَانَ أَبي يَأخذُني إلى الحَلاقِ في بَلدَاتٍ مُجاوِرَةٍ بِسَبَبِ عَمَلِهِ وَضِيقِ وَقتِهِ . . وَكُنَّا إِذَا خَرَجنَا خَارجَ الْقَرْيَةِ يَكُوْنُ ذَلِكَ في أَيَّامِ

العُطلاتِ . . وَيَكُوْنُ معظَمُ دَكَاكينِ الحَلاقِيْنَ مُغْلَقَةً .

وَتَابَعتُ قائلاً :

ـ شَعري الآنَ يَبْدُو مرَتَّباً بِقَصَّته الجَديدَةِ وَنَاعماً جدّاً . . لَقَدْ صرتُ وَسيماً وَأَنيقاً بِهَذِهِ التَّسريحَةِ .

قَالَ العَم أَبُو فِرَاسٍ فَخوراً بِنَفْسِهِ :

ـ أَنَا بَارِعٌ جدّاً في عَمَلِ التَّسريحاتِ المُخْتَلِفَةِ الَّتِي تُناسِبُ كُلَّ وَجْهٍ ، لَكِنِّي في السَّابِقِ كُنْتُ أَحملُ ذِكرَى رَأْسِي العَارِي مُنْذُ أَنْ كُنْتُ طِفْلاً صَغِيْراً . . لِذَا قَرَّرتُ أَن لا أَحلقَ لأيِّ طفلٍ وَلَو جُزْءاً يَسِيراً مِن شَعرِهِ ، حَتَّى يصبحَ شَعرُهم طَوِيْلاً فَلا يَستَهْزِئُ بهم أَحَدٌ .

ثُمَّ سَكَتَ قَلِيْلاً وَقَالَ :

ـ لَكِنِّي عِنْدَمَا شَاهَدتُ شَعرَكَ الطَّوِيْلَ أَحسَستُ أَنَّ قَراري كَانَ مُخْطِئاً . . فَالشَّعرُ الطَّوِيْلُ دُوْنَ تَسريحَةٍ جَمِيْلَةٍ سَبَبٌ آخَرُ لِكَيْ يَستَهزئَ بِهِ الآخَرون .

وَفَجْأَةً صَاحَ العَم أَبُو فِرَاسٍ قَائلاً وَبأَعلَى صَوته :

ـ منَ الآنَ فَصَاعداً . . لا للشَّعرِ الطَّوِيْلِ غَيرِ المصفَّفِ بِعِنَايَةٍ ، وَالمهذَّبِ بِرَوعَةٍ ، وَنَعَم للشَّعر المسرَّح الجَميلِ . . نَعَم للقَصَّاتِ الجَمِيْلَةِ الأَنِيقَةِ .

امْتَلأَ قَلبي سُروراً بَعْدَ أَنْ أدركتُ أني كُنْتُ سبباً لكُلِّ هَذِهِ السَّعادةِ الَّتِي تغمُرُ العم أَبا فِرَاسٍ وَجَميعَ أَطفالِ قَرْيَتِنَا الجَمِيْلَةِ . . وَأَصبَحتُ من يَومِهَا بَطَلاً شَهيراً بَعْدَ أَنِ انتَشَرَت هَذِهِ القصَّةُ في قَرْيَتِنَا . . لَكِنِّي كُنْتُ في الْحَقِيْقَةِ بَطَلاً من وَرَقٍ . . لأَنِّي لَمْ أَفْعَلْ شَيْئاً أَسْتَحَقُّ بِهِ أَن أَكُوْنَ بَطَلاً . .

كلُّ مَا فَعَلتهُ هُوَ الوقوفُ مَشدوهاً عَاجزاً أَمَامَ العَم أَبي فِرَاسٍ يَومَ المُطَارَدَةِ العَنِيْفَةِ . . لَيْسَ لأنِّي جَريءٌ شُجاعٌ أَو بَطَلٌ مغامرٌ . . بَلْ لأنِّي لَمْ أَستَطعِ الرَّكضَ وَالهرَبَ مِنْهُ . . فَكَانَت بطولَتي من وَرَقٍ . . النَّاسُ يَقضونَ عمرَهم ليصبحوا أَبطَالاً . . أَمَّا أَنَا فَقَدْ دَخَلتُ عَالَمَ البُطُولَةِ وَالأَبْطَالِ بِسَبَبِ عَجْزي عَنِ الهَرَبِ . .

فِعْلاً . . الدُّنْيَا حُظُوظٌ . .

ثمَّ رَكَضتُ مُسْرِعاً متَوجِّهاً نَحوَ البَيتِ لأُخبرَ أُمِّي بِقِصَّةِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ ، وَفي الطَّرِيقِ أَوقَفَني طَلالٌ يَسأَلُني عَمَّا دَارَ بَيْنَنَا من حَديثٍ ، فقُلْتُ لَه :

ـ لَيسَ الآنَ ، فَأَنَا مستَعجلٌ ، سَأخبرُكَ لاحقاً . . اجْمَعِ الأَصدقَاءَ وَالحَقوني إلى البَيْتِ . . لا تَتَأَخَّروا . .

صَارَ طَلالٌ يَرْكُضُ بِجَانِبي ويَقُوْلُ لي :

ـ أَخبرْني الآنَ ، فَأَنَا لا أَسْتَطيْعُ الانْتظَارَ .

ـ مسْتَحيْلٌ . . يَجِبُ أَنْ أخبرَ أُمِّي أَوَّلاً ، فَقَدْ وَعَدْتهُا بِذَلِكَ ، وَلَنْ أخْلفَ وَعْدي لَها .

وَظَلَّ طَلالٌ يَرْكُضُ ، ثُمَّ تَبعَنَا بَعْضُ الأَصْدِقَاءِ . . ظَنَّ البَعْضُ أَنَّ السِّبَاقَ عَادَ مِنْ جَدِيْدٍ ، فَنَادَى عَلَينَا أَحَدُهم من شرفَةِ مَنزِلِهِ ضَاحِكاً :

ـ مَاذَا هُنَاكَ يَا أَولادُ !! هَلْ عَادَ الحَلاقُ يُلاحِقُكُم مِنْ جَدِيْدٍ ؟

طَلَبتُ مِنَ الأَصْدِقَاءِ الصَّبرَ حَتَّى أَصِلَ البَيتَ . . وَكُنْتُ كُلَّمَا اقتَرَبتُ مِنَ البَيْتِ يَزدَادُ عَدَدُ الأَصدقَاء الَّذِينَ يلاحقونني ، حَتَّى وَصَلتُ إلى البَيْتِ وَخَلفي كُلُّ الأَصدِقَاءِ ، أَبطَالُ السِّبَاقِ الشَّهِيْرِ .

صَعَدتُ البَيتَ بِسُرْعَةٍ فَصَعدَ الجَمِيْعُ من وَرَائي ، فَتَحَتْ لي أُمِّي البَابَ ، وَدَخَلتُ بِسُرْعَةٍ وَحَاوَلتُ غَلقَ البَاب ، لَكنَّ حَمَاسَةَ الأَصدقَاءِ كَانَت أَقوَى مِنِّي ، وَدَفَعني الجَمِيْعُ نَحوَ المَنزِلِ ، ثُمَّ سَقَطوا كلُّهم دفعَةً واحِدَةً ، وَكَانَ رِياضٌ المِسْكِينُ في المُقَدِّمَةِ ، فَسَقَطَ الجَمِيْعُ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخرَى مِثْلِ المَرَّةِ السَّابِقَةِ ، فَأَسْرَعْتُ نَحْوَهُ لأُنْقِذَه ، لَكِنَّ الأَصْدقَاءَ تَوَزَّعُوا بِالغُرْفَةِ بِسُرْعَةٍ ، فِيْمَا بَقِيَ رِياضٌ عَلَى الأَرْضِ لا يَقْوَى عَلَى الوُقُوفِ .

شَعَرْنَا جَميْعُنَا بِالخَوْفِ وَالذُّعْرِ الشَّدِيْدِ مِن أَن يَكُوْنَ صَدِيقُنَا رياضٌ قَدْ تَعَرَّضَ لِسُوءٍ ، لَكِنَّ رياضاً فَاجَأَنَا بِأَنْ رَفَعَ رَأْسَه وَبَدَأَ يَصِيْحُ

بِنَا غَاضِباً . . ثُمَّ نَهَضَ عَلَى قَدَمَيْهِ بِهِمَّةٍ بَالِغَةٍ ، وَتَوجَّهَ نَحْوِي مُبَاشَرَةً وَقَالَ :

ـ هَيَّا تَحَدَّثْ . . لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيْعُ الصَّبْرَ لَحْظَةً وَاحِدَةً .

ضَحِكْتُ ضِحْكَةً عَالِيَةً مجَلجِلَةً . . ثُمَّ قُلْتُ لَه :

ـ يَا لَكَ من صَبيٍّ مُزْعِجٍ . . اجْلِسْ واسْتَمِعْ .

جَلَسَ الأَولادُ كلُّهم عَلَى الأَرْضِ ، وَبَدَأْتُ أَسرُدُ لَهُم مَا قَالَهُ الحَلاقُ لي بالتَّفْصيلِ . . وَكَانَت أُمِّي تَجلسُ عَلَى الأَريكَةِ المُجَاورَةِ تُصْغي بِاهْتِمَامٍ شَدِيْدٍ .

التَزَمَ الجَمِيْعُ صَمْتاً عَمِيْقاً ، كَانوا ينْصتوْنَ بِهُدُوْءٍ تَامٍّ دُوْنَ أَنْ تَبْدرَ مِنْهُمْ حَرَكَةٌ وَاحدَةٌ ، كَأَنَّما عَلَى رُؤوسِهِمُ الطَّيرُ كَمَا يَقُوْلُوْنَ في الأَمْثَالِ ، لا يُرِيْدُ الوَاحِدُ مِنْهُمْ أَنْ تَفُوتَهُ جُملَةٌ مِمَّا أَقُولُ ، وَلا حَتَّى كَلِمَة تَمُرُّ دُوْنَ أَنْ يَسْمَعَهَا وَيُدرِكَ فَحْوَاهَا . .

وَمَا أَنِ انتَهَيتُ من كَلامِي حَتَّى انْفَجَرَ الجَمِيْعُ في حَالَةِ ضَحِكٍ هِستيريٍّ . . حَتَّى أَنَّ بَعْضَ الأَصْدقَاءِ اسْتَلْقوا عَلَى ظُهُورِهم مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ الَّذِي أَصَابَهُم .

حَقيقَةً لَمْ أَفْهَمْ مَا سَبَبُ هَذَا الضَّحِكِ ! المَوضُوعُ لا يَدْعُو للضَّحِكِ مِن قَرِيبٍ أَو بَعِيْدٍ ، بَلْ عَلَى العَكسِ تَمَاماً ، كُنْتُ أَشْعُرُ بِتضَامُنٍ شَدِيْدٍ مَعَ مَشَاعِرِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ .

قُلْتُ لهُم :

ـ لا أَرَى في المَوضُوعِ مَا يُضحِكُ . . بَلْ عَلَى العَكسِ ، إني مُتَعَاطِفٌ أَشَدَّ التَّعَاطُفِ مَعَ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ ، كَمَا أَنِّي مُتَعَجِّبٌ منْ هَذِهِ القِصَّةِ . . كَيْفَ يَحْلقُ أَبُوهُ لَهُ رَأسَهُ وَيَجْعَلُهُ سُخْرِيةً أَمَامَ أَصْدِقَائِهِ ؟ خَاصَّةً أَنَّ الحِلاقَةَ هَذِهِ كَانَتْ سَبَباً في تَرْكِهِ المَدْرَسَةَ ، وَسَبَباً لِحزْنِهِ الطَّوِيْلِ بَدَلاً مِنْ أَنْ تَكُوْنَ مَصْدَراً لفَرَحِهِ وَسَعَادَتِهِ . .

أُصِيبَ الجَمِيْعُ بِحَالَةٍ مِنَ الوُجُومِ . . لمْ يَنْبِسْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِكَلمَةٍ وَاحِدَةٍ . . وكَأَنَّ الكَلِماتِ الأَخِيرَةَ الَّتِي سَمِعُوهَا مِنِّي تَعْلِيقاً عَلَى ضَحِكِهِم وَاستِهْزَائِهِم بِمَشَاعِرِ أَبي فِرَاسٍ أَحْدَثَتْ في قُلُوبِهِم جَمِيْعاً هَزَّةً غَيَّرَتْ مَا كَانَ يَجُولُ في أَفْكارِهِمْ . .

كَمَا أَنِّي رَأَيْتُ بِعَينَي أُمِّي دَمْعَةً تَتَلأْلأُ كَأَنَّها نَجْمَةٌ شماليَّةٌ في ليْلةٍ شَدِيْدَةِ الظَّلامِ . . الإِحْسَاسُ بِالْعَمِّ أَبي فِرَاسٍ كَانَ شَدِيْدَ التَّأثيرِ وَقَوِيّاً لِلْغَايَةِ . . تَعَاطُفُ الجَمِيْعِ مَعَ هَذِهِ الكَلِماتِ جَعَلَهم يَبْحَثونَ عَنْ أَمْرٍ مَا يعوِّضُ العَمَّ أَبا فِرَاسٍ عَمَّا جَرَى مَعَهُ طوَالَ السَّنَوَاتِ السَّابِقَةِ . .

بَعْضُ الأَصْدِقَاءِ كَانُوا مِنْ جَانِبٍ آخَرَ مُتَضَامِنِينَ أَيْضاً مَعَ وَالِدِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ ، كَيْفَ يَتْرُكُهُ ويهْجُرُهُ مَهْمَا كَانَ السَّبَبُ ، فَلا يُوْجَدُ سَبَبٌ يَضْطرُّ الابْنَ للتَّخلِّي عَنْ أَبيهِ وَعَنْ أُسْرَتِهِ وَأَهْلِهِ جَمِيْعاً . .

الجَمِيْعُ اتَّفَقَ مَعَ هَذِهِ الفِكْرَةِ ، كَمَا اتَّفَقوا عَلَى التَّضَامُنِ كَذَلِكَ مَعَ مَشَاعِرِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ . .

كَانَ الأَمْرُ مُضْطَرِباً بَعْضَ الشَّيْءِ . .

لَكِنْ في النِّهَايَةِ أَسعَدَهم أَنَّهم كَانوا السَّبَبَ في تَصالُحِ العَمِّ أَبي فِرَاسٍ مَعَ أَبيهِ ، وَقَالوا إِنَّهُ لا بُدَّ مِنَ الاحْتِفالِ بِهَذِهِ المُناسَبةِ ، وَأَن نُقيمَ في قَرْيَتِنَا احْتِفالاً سَنَوِيّاً يَكُوْنُ يَوْماً خاصّاً بِالحِلاقَةِ ، نَحْتَفي فِيْهِ بِالْعَمِّ أَبي فِرَاسٍ وَأَبيهِ وَكُلِّ الحَلاقِيْنَ ، ويَكُوْنُ يَوْماً تَرفِيهيّاً واحْتِفالِيّاً كَبِيْراً ، وكأنه عِيدٌ تَكرِيميٌّ لِجَميعِ الحَلاقِيْنَ .

النهاية

المحتوى

يوم مختلف 5

مشاهد تثير الضحك 13

الحلاق العازب 21

نهاية السباق 29

أبو فراس.. وجهاً لوجه 41

طلال سبب المشكلة 54

لغز اختفاء الحلاق 63

سر التغيير المفاجئ 74

المحتوى 88